الصومـــــــال..
زوايا غير مَحْكِيَّة

حسن محمود قرني

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار الفكر العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
info@darelfikrelarabi.com

elbardyprint@yahoo.com

جمع إلكتروني وطباعة

إهـــداء

إلى

ضحايا الحروب . .

الهاربين من وطنهم إلى منفى لا يشبههم . .

القابضين على جمرة «الصومال الكبير» .

المقاومين الذين رفضوا الانبطاح ولم يخِفْهم ضعف الشعب أمام جبروت خصومهم . .

العالقين وراء حدود لم يختاروها يوماً . .

حاملي لواء الأدب وحماة الثقافة في عصر النوبان . .

إليهم أهدي هذا الكتاب .

مقدمـــة

منذ وصول المستعمر الأوروبي إلى شبه الجزيرة الصومالية وشعبنا يعاني من تمزيق أرضه وتقزيم دوره وإجباره على الخنوع، ولكن – وخلافا لمخطط الإمبريالية – لم يقبل العبودية، ووقف أمام الزحف الصليبي شامخا لا يضعضعه تقادم العهد ولا تكالب الأعداء عليه، وبرز من بينه قادة عظام رفعوا لواء الإسلام وخاضوا أروع الملاحم وأعظم الحروب كأحمد إبراهيم (الغازي) الذي وصلت جيوشه إلى تخوم السودان، والسيد محمد عبد الله حسن قائد ثورة الدراويش التي لقنت المحتل الأوروبي درسا يصعب نسيانه، وشيخ حسن برسني، وسلطان أولل دينلي، وغيرهم من المناضلين المجهولين الذين حاربوا من أجل دينهم وتوحيد أرضهم وتضميد جرح أمتهم، ومضوا على درب الحرية طيلة قرون كانوا يقارعون الغزاة في المشرق الأفريقي.

طريق الصوماليين نحو الاستقلال من القوى الخارجية لم يكن ممهدا ومفروشًا بالورود، بل كان قاسيًا وتجرعوا مرارة الهزيمة، كما عانقوا مجد النصر في مواقع روتها التاريخ في أنصع صفحاتها، ورغم محاولاتهم الدؤوبة إلا أنهم لم يستطيعوا تحرير كافة أرضهم مما جعل وطنهم ممزقًا وحياتهم ميدانا مفتوحا لمعارك صنعتهم وجعلتهم شعبًا صعب المراس لا يهاب شيئًا ولا ينقاد بسهولة. وبعد جلاء الكولونيالية الغربية جزء من وطنهم وتأسيس الجمهورية الصومالية داعب الجميع حلم الصومال الكبير، وهو حلم قديم عاشوا معه منذ أن قسم الانجليز بلادهم إلى أقاليم ومقاطعات تعاني من التعسف والإقصاء والتهميش والاحتلال المباشر، ولكن وقبل معانقة كأس الحرية وبعد عدة حروب خاضتها الدولة الصومالية ضد أعدى أعاديها حدث ما لم يكن في الحسبان! انهارت الدولة وانزلق الصوماليون نحو حروب أهلية أثّرت

عليهم وغيّرت طبيعتهم ومستقبلهم وقِيمهم، وشكّلتهم على نحو جديد لم يألفوه، وعاشوا مع أمراض نفسية وجسدية، ونتج عن ذلك مآسي وحكايات لم ترو بعد، وقصصا لم يكتب، بل ظلت محمولة وقابعة في الذاكرة، وتنتظر قلمًا ينقل من السياق الشفهي إلى التدوين، وهذا ما أردناه عبر صفحات هذا الكتاب الذي حاولت قدر الإمكان أن يقدم للقارئ وعبر زوايا مهملة وغير محكية الوجع الصومالي ونضالهم عبر القرون، والحروب الأهلية وتأثيرها على الحياة.

وأخيرًا العمل الذي يحمل إلى جانب هذه المسيرة الطويلة بعض الخواطر الثقافية، وأدب متفرد استخدمه الصوماليون كسلاح للمقاومة، إضافة إلى رحلات أزالت الغشاوة عن عيني بعد أن تعمقت في تفاصيل المدن وحكايات الناس، وعذرية الطبيعة، وأركيولوجيا التاريخ، لا يعترف بالحدود الاستعمارية التي تفصل بين الصوماليين، بل يرى أنها انتهاك صارخ لحقوقهم وكرامتهم، ويتبنى قضية «الصومال الكبير» ويحمل حلم المعذبين وراء حدود وهمية لم يختاروها يوما، وهويات استعمارية لم يعترفوا بها أصلًا..

وفي الختام أنا مدين للأساتذة والأصدقاء الذين قرأوا مسودة الكتاب وأمدوني بنصائحهم القيمة وآرائهم السديدة التي لولاها لما كان الكتاب بهذا الشكل.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

حسن محمود قرني
الإثنين ٢١ أيلول ٢٠٢٠م
مقديشو – الصومال

المحتويات

الموضوع	الصفحة
لا أحد يعود من الحرب كما كان!	
جروح لا تندمل!	
جذور تقاوم السقوط	
إنّهم لا يعرفون كيف يضحكون!	
الترحال.. الكتابة.. والأدب المحمول	
أدب برائحة الإبل	
تحولات الأدب الصومالي..	
بين مشهدين	
٢١ أكتوبر ١٩٦٩م	
الحنين إلى زمن الديكتاتورية	
أوغادين.. مأساة متجددة	
بلاد بونت	
سناغ.. أرض الأجداد	
من كسمايو إلى كيغالي.. رحلة نحو أدغال أفريقيا	
نحو خط الاستواء	
الصومال الكبير	

العنصرية وأزمة الهوية!

مغيب على أعتاب الغربة

مأساة الصوماليين في جنوب أفريقيا

لا أحد يعود من الحرب كما كان!

"لا أحد يعود من الحرب كما كان" مقولة شهيرة ظلت راسخة في أفواه المقهورين بعد كل حرب عبثي كنا نستطيع الابتعاد عنه، وكذلك المدن لا تبتسم كعادتها ولا يلتئم جرح الأوطان بعد الحرب، إنه أسوأ ما عرفته البشرية، يدمّر الشعوب ويشوّه التاريخ والحضارة، ولا ينجز سوى دموع الأمهات وانتشار الفقر والدماء، وتغيير الملامح والهوية والوعي.

الكتابة عن الحروب تعيدني إلى ذكريات الطفولة الضائعة في مرابع عشيرتي الممتدة بامتداد السمرة والإبل، ومعها أمرُّ عبر الخيال الذي يتسع كلما أتوغل في مأساتها ثورات اللاتين، وانقلابات أفريقيا، وهمجية الحضارة الغربية المدمرة، وتخمة العرب من الصراعات الصفرية، والصومال المزدحمة بالاختلافات وحروب أفقدتها نعمة الأمن ومواكبة العالم ومحاربة الفقر الذي قال رئيسها ذات يوم وهو في قلب مقديشو: "إن عام ٢٠٠٠م سيكون آخر عام سيوجد على وجه الأرض صومالي جائع لا يجد لقمة شريفة تسد رمقه"، كانت وعودًا فارغة أطلقها آخر المستبدين الوطنيين كما أطلق مدافعه على المدن

الصومالية. وطلقات المدافع أسرع من وعود السياسيين الذين أخفقوا في إيجاد الحلول الناجعة لأزمات بلادهم.

لم تتحقق تلك الأمنية العابرة لرئيس ظل رمزًا وطنيًّا قبل أن يجرفه الاستبداد بعيدا عن أحلام الشعب ومبادئه، بل توغلنا في عقود كريهة كان صوت الرصاص هو الفصل الحتمي لأتفه الأسباب من شجار الأطفال إلى تلاسن الأصدقاء وحكايات الجدات وصراع الجبابرة، وكان الفرقاء الصوماليون يبتسمون في العلن وأمام الكاميرات في العواصم العربية والأفريقية وفي مؤتمراتهم المتعددة ويوزعون الموت في الخفاء، مما أذهل العالم وجعله حائرًا حيال هذه الأزمة المتجددة. عشنا بين الأمم مطأطئي الرؤوس، والتهمنا الجوع ونحن نعيش في بلد يعدّ من أخصب البلاد الأفريقية والعربية، وساقنا الظمأ إلى توابيت الموت ونحن على ضفاف الأنهار وبحيرات من المياه الجوفية، ولا غرو في ذلك فالعقول القاحلة حوّلت السهول والمدن المطلّة على الأنهار إلى صحراء، بينما العقول المنتجة جعلت الصحراء مروجًا وأنهارًا!

لقد تركت الحروب جروحًا عميقة في البيئة والحياة والسلوك؛ وبدأ الجميع يسأل ويبحث عن زاوية غير تقليدية لاكتشاف ذواتهم ومعرفة ماهية الحرب مما ألهم الشعراء والأدباء والكتاب، وصنع جيلًا جديدًا أبدع بعضهم في وصف الحروب بالقصائد والأشعار والمسرحيات والنكت وقليل من التدوين والكتابة، وبرزت النكسات المتتالية كتَّابًا ورسامين ومواهب استطاعت التعبير عن الحروب بكثير من الإبداع والمعاناة، وحولوا التشرذم إلى سرديات موجعة، ورسوم ملهمة، وحكايات شفهية تغوص في أعماق المأساة، وألحان تعبر عن مشاعر المقهورين ونبضات المحبين وملامح المهاجرين من ديارهم إلى المنافي البعيدة، وقصص تؤرخ للحروب وتخرج الحقيقة الكامنة وراء ركام

الأوطان والقلوب الخانقة إلى صدارة الجرائد وشاشات التلفزة. والحقيقة في زمن الصراعات تختفي على وقع هدير الرصاص، وتضيع الأشياء في عمق الجروح الغائرة.

وأخفق بعضهم كالفن الصوتي (الأغنية) حيث توارى في محراب الحب وألوان الصبا ومفاتن المرأة والرومانسية المفرطة، وكان في معظمه غريبًا هابطًا لا يمتّ بماضي وأحاسيس وثقافة الشعب بأي صلة، ولا يحاول تخفيف الألم عن كاهل الكادحين إلا ما ندَر، وبدا الفنان وكأنه يغنّي لمجتمع مثالي يعمّه السلام وتحفه الطمأنينة، ومن الغريب أنهم يُحيون الليالي الحمراء في المنافي في حين كان الدّم يسيل في الطرقات، وبعضهم شاركوا في فصول الحرب وسقطوا من عيون الشعب إلى الأبد، وقصارى القول كان الفن والأغاني "الإيروتيكية" في واد والواقع في وادٍ آخر.

وكذلك أخفق المثقفون سياسيًّا ودفنوا رؤوسهم في الرمال المتحركة واتصفوا بالانطوائية والشوفينية لأفكارهم بعيدًا عن المجتمع ومشاكله الحقيقية، وطفقوا يحللون الواقع ويلعنون الحاضر وقد احتفظوا بأماكنهم البعيدة عن معترك السياسة بكل برودة. كانوا ينشرون نظرياتهم عن الوطن وعن الحروب وعن الإسلام والثقافة والسياسة والدولة والقبيلة دون أن يقدموا مقترحات حقيقية لانتشال الوطن، بل كانوا يتهربون من مسؤولياتهم ويتذرعون بأسباب واهية دون أدنى شعور بالذنب، وقد انتهز هذه الفرصة زعماء القبائل ومجرمو الحرب فتصدروا على المشهد السياسي والاقتصادي مما أبعد الحلول.

لقد تمرّد المثقفون على الواقع القبلي العفن وابتعدوا عن قيادة الدولة وتأثير القبيلة ـ حسب أدبهم ـ ولكنهم أبدعوا في حقول التعليم وإنتاج المعرفة،

فأسّسوا المدارس والمعاهد والجامعات، وساهموا في نشر ثقافة التدوين والكتابة، ووثقوا المجازر والانتهاكات ضد الإنسانية واغتصاب براءة الأطفال وزجِّهم في الحروب الأهلية، وساهموا في إبراز الزوايا الأكثر إيلاما من زوايا الحروب، وتصوير المشهد ومساعدة الآخرين على فهم الأحداث كما كانت وكيف حدثت بدون تهويل أو تزييف أو تضليل أو تجزئة. ولكن – وكما قال الصحفي المصري أسعد طه: "ماذا تفعل الكلمة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية لأناس في حاجة إلى شربة ماء أو دواء، أو ضمادة توقف الجرح النازف؟ ".

ورغم أن الكتابة لا تستطيع برومانسيتها ورفاهيتها في خيال المجتمعات ذات الثقافة الشفهية بناء مستقبل مشرق وسلام داخلي ما لم تتكاتف جهود القوى الفاعلة في الساحة بكل أنواعها وأيديولوجياتها، إلا أنها تظل النافذة الأهم التي نشهد من خلالها سوداوية الحروب وتعليق القوانين، وعبرها نستطيع نشر ثقافة التسامح والسلام والتعايش السلمي بين أطياف المجتمع، وفي هذا السياق يجدر بنا أن نذكر أن الكتابة عن الحرب تبدو في خيال البعض مهنة لا تقل بشاعة عن الحرب نفسها! حيث تُنقل اللحظات الأكثر بؤسًا وعنفًا في تاريخ البشرية إلى الأجيال القادمة لنكدر عليهم حياتهم بأحداث لم يعاصروها وأهوال كانوا في غنى عنها.

ولكن الجانب الأكثر وحشية للحروب هو أنه سينتهي وإن تمدد، وتتصالح الدول والشعوب والقبائل، وسيظهر على السطح مجرمون برتبة زعماء، وسيُمنَح الجنرالات أوسمة ونياشين وجوائز تقديرية لإبادتهم المروعة ضد الأبرياء، وسيجني أثرياء الحروب وصناع البؤس ملايين الدولارات من دماء الكادحين! ووحدهم البسطاء يعانون ويموتون من أجل مبادئ ظالمة وحروب خاسرة في كل الأحوال، يزهقون أرواحهم، ويفقدون أحبابهم،

ويخسرون أعضاءهم، وتصيبهم التشوهات من أجل مستبد همّه الكرسي وإن مات الملايين، ويستميتون في الدفاع عن ناهبي أوطانهم في حرب لا يعرفون أساسها ولا يدركون خطورتها القانونية والأخلاقية والإنسانية! فقط سمعوا عبر أبواق المجرمين أنه الدفاع عن وطن لم يقدم لهم شيئًا سوى الفاقة والمرض والجهل، وأنها حرب جيدة تستحق الموت علمًا بأنه لا يوجد حروب جيدة وأخرى سيئة. ويتساءلون بحسرة: لماذا السلم رغم جماله مفقود والحرب رغم بشاعتها موجودة؟

كيف نموت من أجل دولة يملكها طاغية وتحلبها عائلة وتبدأ من حيث تنتهي القبيلة أو المصلحة أو الطائفة؟ وظلت عاملًا هامشيًّا في حياتنا، ولم نعطها يومًا ولاءً حقيقيًّا بعد أن ترسبت الموروثات الثقافية والاجتماعية وتأثير القبيلة وقدسيتها في مخيلتنا، وارتبط ولاؤنا الأول للقبيلة أكثر من الدولة، وبالتالي أصبحت الدولة عاملًا تابعًا للقبيلة وليس العكس! لقد أخذت الدولة في أوطاننا مفهومًا كارثيًّا بكل المقاييس حيث اختفى التابع (الدولة) وبقي المتبوع (القبيلة/ الطائفة) تتعملق وتسيطر على حياة الشعب مما أدى إلى انهيار تام بالمؤسسات الوطنية واشتعال حرب أنتج شعبًا شرسًا ومتوحشًا للغاية يعاني من الأمراض النفسية والشحنات السالبة. وبعد تعمق الخوف في عقول المجتمع تحوّل البشر إلى جلّادين، والعالم أفقًا شاسعًا من القتامة والظلامية، ووسعت تلك النظرة الشرخ الداخلي وأضعفت نسيج المجتمع وغرست في خيالهم أمراضًا وهلوسات سلبت السعادة والإيجابية عنهم، وبذلك اختفت قيم الأخلاق والجمال والدين، وانتشرت السلبية لتغطي مساحات شاسعة من قلوبهم، وتحوّل إدراكهم ووعيهم الجمعي إلى ثيمة يرون من خلالها المواطن وكأنه "آخر مختلف" يسعى إلى قتلهم وسطوة ما في جعبتهم.

وانتشرت الكراهية وعمّ الفشل بين الطبقات وأخفقنا في أن نبدأ الحياة من جديد بعد سنوات من الحرب المروعة، وبات الجندي الذي دأب القتال والسادية في الميادين والشراسة في الثغور يخفق في منح الحب لعائلته واحترام القانون، والطفل الذي فقد البراءة في براثن الحرب، وبزغت طفولته في معمعة الوغى، التكيفَ على الحياة الهادئة بعيدًا عن أزيز المدافع وزخات الراجمات والعنف الأسري والمجتمعي، والأم المكلومة التي فقدت فلذة كبدها التلذذَ بسلام لا يعني لها سوى ذكريات موجعة.

لقد دمّرت الحروب كثيرًا من أحلامنا وكرامتنا، وعشنا في ظل فوضى عارمة ووطن غارق بالدموية والأزمات السياسية والدينية والقبلية، وشكّلت الحروب أجيالًا من الصوماليين، وسحقت أحلامهم، وأفقدتهم القدرة على الحياة والتبسم والتذوق للجمال وتقديس الحياة.

جروح لا تندمل!

الصومال وطن يلفه التاريخ ويحيطه المحيط والحروب، الأنهار تداعب جبينه، والمناطق الأثرية تستقبل زواره مع لمسات استوائية مميزة. روائح الثقافة عابقة في منارات مساجده الشاهدة على الحضارة الإسلامية، والمدن القديمة تشكل صندوقًا مليئًا بالأسرار وماضي أمة كانت همزة وصل بين أفريقيا والبلاد العربية وما ورائها من البلدان والشعوب. موقعهم المتميز في جناح أفريقيا جعلهم مدخلًا مهمًّا للقارة السمراء فاستقبلوا القادمين من آسيا من الشيرازيين والعرب - الذين وصلوا إلى الصومال عبر موجات متتالية من البشر منذ انهيار سد مأرب وما بعده - بكثير من الترحاب ومدن عامرة بالبهجة والتجارة والحيوية الجغرافية، وبعد بزوغ فجر الإسلام توثقت أواصر العرى بين العرب وبين سكان ساحل الصومال فأسسوا الممالك والمدن والمراكز التجارية، وبنوا القلاع والموانئ وانسجموا مع القبائل، وانتشرت ثقافتهم وحضارتهم وساد فنونهم؛ وبذلك أثّروا على اللغة والملامح والتركيبة

السكانية، وفي غضون سنوات قليلة ذاب العربي في المجتمع المحلي وبات عنصرًا مكونًا من اللوحة السكانية الصومالية.

على أطلال حيّ شَنْغاني في مقديشو تحيطني جروح لا تندمل، وانهزمتُ أمام أطلال التراث الصامد، قصور السلاطين على كتف المساجد، ومتاحف تقبّل الرمال، وذكريات الرحالة كريستوفر كولومبس، وكتابات ابن بطوطة، وآثار المؤرخين والكتاب الذين مرّوا على بلاد بونت وهم يبحثون عن مجد الكلمة أو متعة السياحة في أجواء مقديشو «ساحرة شرق أفريقيا»؛ فهربتُ أداوي جروح الحروب بالكتابة رغم صعوبة نسيان ذكرياته المترسخة في الذاكرة الجمعية للشعب. كلما أتوغل في تفاصيل المدن وخريطتها المنهكة بالانفجارات أقترب إلى معالم قديمة ضاعت، وشوارع اختفت، وتراث طمره النسيان، وملامح ذابت، ومآسٍ ممتدة بامتداد مقديشو، ويبدو المحيط الهندي على صفحة الأفق وكأنه يراقب مدينة تنام على وقع الانفجارات وتصحو على دوامة سحب الثقة من أحدهم، وإذا توغلت في الحس الشاعري والهوية الحضارية المميزة لـ «حَمَرْ» سترى طلًا من ابتسامة تبرز بعض مفاتنها وإن علاها غبار عدة عقود كان خنجر الفرقاء مغروسًا في خاصرتها.

نحو العبور إلى تاريخ طمسته المعارك، وأمام مقر البرلمان الصومالي الذي يعاني من تضاريس الأزمنة تعيدني مقديشو إلى بداية السبعينيات من القرن المنصرم، في الأفق البعيد ووراء عقود مضرجة بالدماء أرى لوحة صومالية زاهية المعالم. الصوماليون في تلك الفترة كانوا طليعة الأمم الأفريقية، دولتهم كانت مؤثرة في محيطها، وجيشهم كان من أقوى الجيوش في القارة السمراء وسعى إلى تحرير أقاليمهم المحتلة، والوطن اتجه نحو تحقيق نهضة مقرونة

باستبداد عسكري وتوجيه الناس وتوعيتهم عبر الخطب والمسرحيات والفرق الموسيقية.

سياسيًّا كانت الدولة نشطة جدًّا في المحافل الدولية والمؤتمرات العالمية وتتحدث باسم أفريقيا وتبحث مع الجهات المعنية الحلول الناجعة لتحرير روديسيا، وأنغولا، وانتهاء التمييز العنصري في جنوب أفريقيا. والفن الصومالي تم تكريسه لهذا الهدف النبيل، وتحول من فن يغني للحب والخلجات الإنسانية إلى فن نضالي يشجع الأفارقة على الاستقلال ويشجب تصرفات يان سميث (١٩١٩ – ٢٠٠٧م) العنصرية في روديسيا الجنوبية (زيمبابوي حاليا)، كما كانت القضية الفلسطينية حاضرة في كل حين، ومثال ذلك الأغنية الشهيرة التي اجتاحت في ربوع الوطن الصومالي بعد النكسة العربية عام ١٩٦٧م "اليهود مئة" كناية عن قلة عددهم وتشتتهم واعتمادهم على غيرهم، وهي أغنية ثائرة ومفعمة بالحماسة وأدب المقاومة، وتنضح بالعز والإباء وقراءة مجريات النكسة والقضية الفلسطينية العادلة التي حملها الصوماليون في قلوبهم قبل أدبهم وأغانيهم. وبرز في الساحة شعراء وأدباء أصبحت قصائدهم وأغانيهم محركًا أساسيًّا وأيقونة تعبر تطلعات الشعوب ورغبتهم العارمة لنيل الاستقلال.

المبنى الشامخ فوق التلة المطلة على القصر الرئاسي (فيلّا صوماليا) شهد مؤتمر القمة الأفريقية عام ١٩٧٤م وضمّ في جدرانه زعماء أفريقيا العظام قبل أن تنال يد الغدر وتحوله إلى أطلال باكية وثكنات للجيوش المتصارعة على المدينة. في تلك الحقبة كان الصومال مزدهرًا ويشهد جهودًا حثيثة من أجل لحاق قطار التقدم والاكتفاء الذاتي، تصدّر العساكر في الجمهورية الثانية وانغمسوا في السياسية بعد دولة مدنية ينخرها الفساد ويقودها الدستور. في

الوهلة الأولى بدا الجيش وكأنه يلبي مطالب الكادحين، تضافرت الجهود وتكاتفت جميع شرائح الشعب من أجل صومال جديد، فبدأت موجات البناء وإنشاء التعاونيات والمشاريع الوطنية التي مازالت ماثلة إلى يومنا هذا.

حكومة العساكر لمست الوتر الحساس للشعب عندما ركزت الجوانب الثقافية والتوعوية والتاريخية، ونفضوا الغبار عن تاريخ الأبطال، وبعد قطع أشواط نحو التطور ودولة تواكب العصر وتستطيع استعادة استقلال قرارها حدثت نكسة غيّرت البوصلة! العساكر اختاروا الأيديولوجية الشيوعية ومحاربة الأصالة والهوية الدينية المترسخة في الوجدان، ومن أجل تعميق الماركسية في أوساط الشعب أصدروا قوانين مجحفة بحق الدين والمقدسات فبدأ الصراع ينشب بين العلماء والسلطة، ودارت مساجلات فكرية وثقافية تطورت إلى إعدام العلماء وإراقة دمائهم! كانت خطوة جريئة نحو الانهيار تَعَمّق بعدها الشرخ بين الشعب والحكومة الصومالية الاشتراكية، وتوقفت عجلة الاقتصاد، وضاع الشعب وفقدت الدولة هيبتها على القلوب وسيطرتها على الأرض، وبعد سنوات من إعدام العلماء والهزيمة المؤلمة في جبهة أوغادين بدأت المعارضة المسلحة تشن حروبًا على الدولة، وبين انتهاكات الدولة البوليسية وعمالة الجبهات المتمردة ضاع الوطن، لقد دمره الحرب وبقي تاريخه دفينًا تحت عباءة القبلية وغباء المهووسين بالحكم.

على بعد أمتار قليلة من مجلس الشعب يطل تمثال ثائر الصومال السيد محمد عبدالله حسن بهامته الممشوقة وتقاسيمه الدقيقة، السيد ورفاقه الأشاوس الذين قادوا الجموع نحو الحرية والكفاح المسلح في زمن كان الوعي السياسي الصومالي في أدنى مستوياته واجهتم مصاعب جمّة كتفكك الوطن، وتأليب الرأي العام، واغتيال المعنويات عبر وكلاء الاحتلال، وعدم الحصول على

الأسلحة والذخائر بسبب الحصار الأوروبي المفروض على السواحل الصومالية، ورغم ذلك حاربوا الترويكا المحتلة (بريطانيا، إيطاليا، فرنسا) إضافة إلى الحبشة، وكابدوهم خسائر جسيمة طيلة عقدين كان نار الجهاد يومض على ربوع القرن الأفريقي.

في بداية عهده مارس الاستعمار حيلته المعهودة في ابتلاع الأمم والأراضي: توقيع الاتفاقيات المجحفة مع السلاطين وأعيان القبائل. في تلك الحقبة معظم الزعماء كانوا يعتقدون أن الاتفاقيات مع الدول الكبرى تحميهم من الأطماع والحروب المحلية، ولكن كان للمحتل أطماع اقتصادية وسياسية ودينية أكبر بكثير مما عرفه السلاطين، حيث كان يطمع في التهام الصومال واستعباد شعبه ونهب ثرواته ونشر المسيحية تحت بند أحقية الدول الأوروبية أن يكون لها الحق في احتكار التجارة ورسم السياسة ونشر الثقافة والتعاليم النصرانية في المقاطعات المستعمرة.

استهدفت ثورة الدراويش محاربةَ الغبن السياسي والأفكار الانهزامية التي بُثت في أوساط الشعب؛ فشنوا هجومًا عنيفًا على جيوش الإمبريالية والقبائل الموالية للمحتل لإجبارهم على الانسحاب من الاتفاقيات والانضمام إلى جحافل المناضلين، نجحت الثورة في رد الاعتبار وتحرير العقول من الأغلال، وبعد سنوات من الكفاح استطاع الأوروبيون هزيمة ثورة الدراويش عسكريًّا بعد قصف قلعة "تليح" معقل الحركة في فبراير عام ١٩٢٠م، ولكن لم يستطيعوا هزيمتها تاريخيًّا وتراثيًّا لأنها غرست الوطنية والإيمان في قلوب الصوماليين، وأعادت لهم الثقة، ووحدتهم بعدما كانوا قبائل متناحرة وبطونًا متصارعة لا هدف لهم سوى الغارة على القبيلة المجاورة؛ وبذلك تغلغلت في أوساط الفن والثقافة والأدب والوجدان الذي مازال يغني بأمجادها ويعدد

مآثرها ويعتكف على دراسة تاريخها بعد مرور حوالي قرن من استخدام بريطانيا الأسلحة البيولوجية ضد الثوار في منطقة "هُرشَكَحْ" وغيرها من الأماكن. لقد عبأت الدراويش المجتمع الصومالي عبر الأشعار والخطب والانتصارات وتطبيق الشريعة الإسلامية حسب استطاعتها، ورسمت له سياسة بعيدة عن القبلية والقناعة بالذل والخضوع للقوى الخارجية، وقادتهم نحو الحرية ومقارعة المحتل واستعادة الأراضي المفقودة والكرامة المهدرة.

في منطقة أرخى ليل الحرب سدوله عليها تبقى الذكريات الجسور العابرة إلى الأمل والحياة، على شمال الطريق مبان صامتة وأخرى تترنم بأغاني الماضي وألحان السلام. تجاوزتُ تمثال الدرويش بمزيد من المرارة والألم، كان رائدًا لشعب معادي لنفسه وموبوء بالخلافات القبلية وأراد أن يعيش ذليلًا وعلى هامش التاريخ رغم ما يملكه من المصادر والموارد والحضارة.

جذور تقاوم السقوط

عند تقاطع التاريخ بالطرق المنهارة كنت ضيفًا على الحسرة مرة أخرى! فوق ربوة قليلة الارتفاع في منطقة كيلومتر ٤ يبرز تمثال "أحمد جُريْ" المجاهد الذي نشر الإسلام وحمى المقدسات الإسلامية من العبث، وقاوم ضد الاستعمار البرتغالي والحبشي. الصوماليون لا يملّون من الارتحال ونشر الدعوة والتجارة العابرة للقارات. كانوا رعاة يسيرون وراء الماء والكلأ، وجحافل يأتون من سهول الأعماق إلى مرتفعات الحبشة غربًا، وسهول السافانا جنوبًا. ومنذ أن تمازجت القوميات في شرق أفريقيا كانوا يحملون لواء الإسلام، ويواجهون المخاطر بابتسامة لا تفارق محياهم.

في الصباح الباكر وقبل أن تبدأ الزحمة يبدو التمثال كئيبًا تحت واقع الصومال الحزين. ورغم اختفاء المجسم إبان سنوات الحروب إلا أن روحي تتحدث مع أحمد الغازي بشجن، نظرتُ إليه وأنا أخجل من مواجهة مَنْ كانت الشجاعة عنوانه. أذهلني الوضع وأسكتتني الفواجع! عجزت النساء

أن يلدن مثله؛ نعاني من شح في القيادة الحقيقية وابتلينا بأقزام همهم ملء الجيوب وتلميع صورة العدو الخارجي! ضحك البطل بخشونة يؤنبني ويحدثني عن عصره المليء بالفتوحات والملاحم ومقارعة الأعداء: "أما أنتم فأصبحتم في ذيل الأمم! ماذا فعلتم بأنفسكم؟ لماذا رضيتم أن تكونوا أداة في أيدي الأعداء؟ تتقاتلون من أجل القتل وإرضاء أسيادكم من الشرق والغرب؟ عجيب أمركم يا أحفادي، في هذا التوقيت الحرج أمامكم خياران لا ثالث لهما: إمّا صوت العقل والمصالحة الشاملة والتعايش على أرضكم متماسكين، أو التعمق في الجرح النازف والتمادي في طريق العار، بقّروا البطون ويتموا الأطفال ولعنات الأجداد تلاحقكم"!

كانت مشاعر الأسى تتدفق عبر شرفات المكان والزمان وأنا أحثّ الخطى نحو ضاحية من ضواحي مقديشو حيث تحيط بنا حقول الموز ومزارع المانجو والفواكه على ضفاف نهر شبيلي الخضرة لا تريد الابتعاد عنا، بل تقترب ونحن في طريقنا إلى القرى المتناثرة على أهداب الأنهار والمستنقعات الجنوبية في سهول وامُوْ. أصوات الأطفال تخترق الأجواء المشحونة بتقاليد الريف، الصبيان رائعون وتبدو من بشرتهم آمال تعانق السماء وهم يتدفقون من البيوت الطينية والمدارس القرآنية، ورغم التقارير المهولة للأمم المتحدة حول الصومال إلا أن القاطنين في القرى المحاذية للطريق يعيشون حياة جميلة، وسعادة ملامحهم الذائبة في السمرة والأوراد الصباحية كانت مذهلة. هنا وجوه صومالية خالية من الكآبة، وشيوخ يتمتعون بروح الدعابة والضحكة الصافية، السعال في الهزيع الأخير من الليل وبريق عيونهم يخبرك حكايات الحروب والتاريخ، المساجد منتشرة في كل ركن من تلك القرى المرصعة بجو صومالي بديع حيث مرح الأصدقاء على ضفاف الأدب والأمثال تنساب في أزقة التاريخ وشواطئ المعاناة اليومية للبسطاء، الكل يراعي النجوم ويستظل

القمر ودولة القوافي، وينام على وقع أنين المظلومين ويصحو على أصوات الرصاص.

نهر شبيلي وما وراءه من المدن والقرى تعتبر مروجًا ممتدة نحو الأفق ونهر عابر للأوطان تختلط فيه الأعراق والسياسة والمصالح والتضاريس، وبصمات الدمار بادية على جبين الأنهار والبحار والمدن الغارقة بالشحوب وعلى أرصفة البيوت التي هاجر سكانها بعد أن طردهم الوطن واستقبلتهم المنافي، قصص الرحيل في المدن والأحياء مؤلمة ومأساوية، وفي عمق الدمار تأتي الأجيال المكافحة من أجل الحرية والمعرفة وانتهاء الصراعات وفواجع الحروب عبر العلم والقراءة والبحث عن الذات وتتبع خيوط الحقيقة رغم ندرتها في وطن تتقاذفه أمواج الانتماءات.

ما أجمل السفر في ربوع وطنك يرافقك كتاب يذكرك بالماضي الجميل! كنت أقرأ وأنا أسير على دروب يطول فيها العبور كتاب «سالي فو حمر وحكايات أخرى من أفريقيا» للدبلوماسي السوداني جمال محمد أحمد، الكتاب يثير كوامن الذكريات في أعماق نفوسنا، حيث يتناول بطريقة أدبية ماتعة الصومال وحكاياتها وسمرة أهلها وعراقة تاريخها. الفترة التي لحقت الاستقلال كان الوطن مرتعًا للكتّاب والأدباء والسياسيين والآن دمرَّت الحرب كل شيء، لقد اختفت معالم الدولة ومظاهر الثقافة ومعهما الكتاب والإبداع. ولكن مع الاستقرار النسبي للأوضاع تحسن وضع الثقافة في الصومال عبر الأندية والملتقيات الأدبية ومعارض الكتب في معظم المدن، وبدأت بوادر المعرفة تلوح في وسط الركام مما ساهم في نشر الوعي بين الشباب.

كنت أحثّ الخطى نحو مكتبة تبرز من قلب مدينة كسمايو الساحلية يحدوني الشوق إلى ندوة مصغرة لمثقفين يحملون همّ الوطن، كانت "الهويات القاتلة" عنوان جلستنا التي تفرعت وتوغلت في جميع الميادين حتى لامست الماضي والحاضر وأضاءت المستقبل، وكان أصل الصومال كعادته لغزًا حير الجميع، ومن الغريب أن الصوماليين لم يحسموا أصلهم لحد الآن ومقسمون بين عربي لا يتقن لغة العرب وأفريقي لا يحمل جميع ملامح الأفارقة يرافقهم الحيف في المنظمات حيث يعتبر الصومالي مواطنا من الدرجة الثانية عربيًّا وأفريقيا، وتعتبر موضوع الأرومة من أشرس المواضيع في الساحة الصومالية. لم يكن بحث الجذور الموضوع الوحيد في تلك الندوة، بل كان مبدأ «الصومال الكبير» الذي هاجمه البعض من الداخل حاضرًا في أروقتها.

الأشواق الصومالية ومطالبتهم بالوحدة إبان التحرر الأفريقي اصطدمت بسياسة الاستعمار ومصالح الإمبريالية العالمية فقطع أوصال بلادهم وقام بتصفية عقولهم، وحارب ضد الحركات التحررية وفي مقدمتهم حركة الدراويش، ونصر الله، ووحدة الشباب الصومالي، والصومال الغربي، وثورة شيخ حسن برسني، ومقاومة قبيلة بيومال في الجنوب وغيرهم، وقاموا باغتيال أيقونات الوحدة أمثال المناضل محمود حربي الذي أُسقطت طائرته في عرض البحر، "حَربي" رفَع شعار عودة جيبوتي إلى حضن الأم، وكان صوتًا للحلم الصومالي القابع وراء الحدود التي صنعها الاستعمار. بعد هذه النكسات لم يستسلم الصوماليون بل قاوموا المحتل فشنوا الحملات وجردوا الجيوش وهم يحملون لواء الإسلام وأحلام مشروعة تقودهم نحو إعادة مجدهم ومدنهم. ومنذ أن اعتنق الصوماليون الإسلام ظل يشكل النبض الأكبر لحروبهم فتوغلوا جنوبًا وغربًا عبر رحلة برية تستحق عناء البحث والكتابة بعد أن تدثرت بغبار النسيان وأصبحت حكايات يرويها الأجداد للأحفاد.

كان الصوماليون يتمددون على المشرق الأفريقي من أجل نشر الإسلام، أو الهرب من صراع القبائل والأفخاذ الصومالية، أو البحث عن الثراء ومناطق لم يصلها الرعاة الرحل، وقد أفل نجم الممالك والدول التي حكمت أجزاء واسعة من شرق أفريقيا بعد مجيء الاستعمار دون أن يتركوا كتبًا تؤرخ لمسيرتهم، لذا ربما لا ندرك جلّ الطرق التي سلكوها والأحداث التي رافقت زحفهم، ولكن نستطيع أن ندرك عبر الشعر الذي ظل المتحف الخازن لسجلات الماضي أن الشعوب الساكنة في تلك المناطق لم تستقبل الصوماليين بالورود والزغاريد بل بالحرب والدماء، ولكن بفعل الشجاعة والتفوق التدريبي والرشاقة إضافة إلى التجلد والرغبة الحقيقية لإيجاد أراضي جديدة لإبلهم إلى جانب نشر الإسلام على ربوع الوثنيين كانوا ينتصرون في معظم المعارك ويواصلون زحفهم حتى وصلوا إلى تخوم نيروبي جنوبًا وأواسط البحر الأحمر شمالًا، فيما تمددوا غربًا إلى أديس أبابا وما وراءها من البحيرات، وكان الصوماليون من الأوائل الذين وصلوا إلى عمق الأمهرا في بداية القرن السادس عشر وتحديدا عهد الجهاد المسلح ضد أباطرة الحبشة الذي قاده الغازي أحمد جري ورفاقه الأشاوس.

لقد تعمق الصوماليون في الأدغال الأفريقية وعبروا نهر "تانا" إلى الجنوب وهم يحملون عقيدتهم وأفكارهم وإبلهم ونمط حياتهم، ورغم التنوع الثقافي والعقدي بين الصوماليين وسكان تلك الأراضي فإن الروايات الشحيحة والميثولوجيا الصومالية تدلنا كيف كان التداخل بين المجموعتين بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ حيث روى لنا المسنون أن المحاربين بعد أن وصلوا تلك الأراضي واستوطنوا فيها آلت إليهم الأموال والممتلكات وتزوجوا من القبائل الأصلية، وبذلك أصبحت تلك البلاد موطنهم البديل إلى أن جاء الاحتلال الغربي والدول القُطرية فانحسروا نحو المحيط بعد أن خسروا آلاف

الأميال بسبب قلة عددهم واتساع أرضهم واختلاف البيئات الماطرة عن تلك التي عاشوها في مرابعهم في القرن الأفريقي، إضافة إلى السياسة الاستعمارية التي نصت على تحجيم دور الصوماليين وتلجيم مطامعهم.

كانت القبائل الوثنية التي تسكن على المستنقعات الجنوبية وما بين نهر جوبا وتانا في الإقليم الصومالي في كينيا شديدي البأس واتسموا بالشجاعة والعدد والتكتيك القتالي، وكان لهم ثقافة مازالت بعض آثارها بادية للعيان، ورغم ذلك ما زال أنماط حياتهم وطقوسهم المعيشية والدينية شحيحة جدا إلا ما كتبه المحتل البريطاني وهي رغم قلتها لا تنصف في كثير من الأحيان، وقد امتدت مسيرة الصوماليين نحو البحيرات العظمى وخاصة "تشاد" التي يعش فيها اليوم قبائل صومالية كما يعتقده فصيل كبير من الصوماليين رغم أنها اندمجت تمامًا في المكون الثقافي والعرقي لجمهورية تشاد والبلاد المجاورة.

ورغم جهود بعض الكتاب والجهات الرسمية لإبراز وكتابة مميزات أمة ظلت حاجزًا ثقافيًا بين العرب والأفارقة نحتاج إلى مجهود جبار ورحلات علمية تبحث عن التاريخ وتتعمق في الجذور الممتدة عبر جغرافيا وتاريخ القرن الأفريقي وربما الأبعد (شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا)، والرحلات المتبادلة بين الصومال وشعوب العالم لتحديد تاريخنا بدقة تقودنا نحو إثبات "الهوية الضائعة" والأزمة القديمة الجديدة حول الأصول التاريخية والجذور العرقية للإنسان الصومالي.

ولكي ندرك التاريخ نحتاج إلى بذل الجهود وتكاتف الطاقات ومتابعة خطوط وخيوط الهجرات المتعاقبة وتأثيرها على التركيبة السكانية والتداخل الثقافي والعرقي بين الصومال والبلدان المجاورة، ولابد أن نبحث عن الوثائق والمكتبات الغربية التي تعج بملايين الأبحاث والكتب والرحلات

الاستكشافية لمغامري أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وكتب الإرساليات التبشيرية ومذكراته، ويوميات قادة الجيوش، وأن نقوم بترجمة المراجع القديمة منذ أن أبحر الرحالة الإغريقي "سيكلاكسن" نحو المحيط الهندي والبحر الأحمر بسنة قبل الميلاد، وفي هذا الصدد تبدو المراجع العربية في غاية الأهمية خاصة وأن العرب كان لهم أكبر الأثر منذ أن هاجرت القبائل العربية إلى الشرق الأفريقي.

وأخيرًا يعتبر ما تم اكتشافه ضئيلًا جدًّا بالنسبة للكنز الخفي الذي ستكشف عنه الأجيال القادمة بعد فهم وقراءة الكتابات القديمة المنقوشة في الكهوف والأماكن الأثرية، وربما تكشف الأبحاث القادمة وبعض التحاليل الراديوكربونية والتأريخ بالكربون المشع عمر حضارة الصوماليين التي عاشوا فيها أو تلك التي أنشأها مثل حضارة أزانيا التي حكمت الساحل الشرقي لأفريقيا وبادت بست قرون قبل الميلاد، وقد دلّت أولى هذه الجهود قِدم الحضارة الصومالية المنسية حيث دلت بوضوح العلاقة التاريخية بين ملكة سبأ وملوك البونت من جهة وبين نبي الله إسماعيل عليه السلام من جهة أخرى.

إنّهم لا يعرفون كيف يضحكون!

في الطابق الرابع والعشرين وفي نافذة مطلة على شارع يرتاده الهاربون من ملل الحياة ومن قرّ الخريف الماطر تبدو المدينة وكأنها سجادة زاهية مبسوطة على مساحة شاسعة من النور والغموض، نوافذ مضيئة وأخرى معتمة وسيارات تنساب كأنهار أفريقيا قوة وتتابعًا، وعمال يحملون ملامح مجهدة وغارقة بتفاصيل الأيام، وأبراج سامقة تعلوها أنوار باهرة كالقناديل. أراقب نبض المدينة ولا أعرف ما يجري في داخلها. حيوية البشر وكفاحهم ضد الفناء، الاستجابة المفرطة لنداء الطبيعة، أنقياء يعبدون الخالق في زوايا معتمة، وحشاشون يستمتعون بنشوة الجرعات، ومراهقون يضاجعون أيديهم ويمارسون الجنس الذاتي، وسرّاق يتحسسون وسط حقول ملغمة ويسيرون على أصابع القدمين خوفًا من صحوة متأخرة لعجوز انتابته نوبة سعال في الهزيع الأخير من الليل، ومرضى نفسيون تقتلهم الكآبة في الغرفات. إنها مساحة مثالية وخالية نستطيع أن نسقط عليها ما نشاء من التصورات والإيحاءات. من بعيد تشبه المدن النفوس البشرية التي لا نعرف

كنهها وما يعتريها من الألم والسعادة والأمراض في عالم ربع سكانه يعانون من الأمراض النفسية.

مدينة لا تَبْلى ولا تشيخ ولا تنقضي زحمتها، باردة الإشراق كما عهدنا، دافئة الابتسامة في كل حين، لها ملامح أمومة ورائحة أبوة وتعج بصخب المجون والملاهي، ويرتفع فيها نداء الإسلام ليذكرنا بالمآل كلما جرفتنا الأمواج بعيدًا نحو هاوية الملذات، وفيها ملايين من البشر تدفقوا من الفجاج فمنهم من وجد ضالته، ومنهم من أغرقته الحياة، ومنهم من يحاول الوصول دون أن يملك مقومات الصمود، ومنهم المغرد على قمة النجاح. إنها الدنيا وتلك شجونها. مصممة بطريقة بعيدة عن تمنياتنا وتريد منا الكفاح لتحقيق مطالبنا، ومن أجل تجاوز مطباتها نحن بحاجة إلى التفكير والتأمل.

كانت وحدة الليل تضنيني في مدينة أبعدتني عن من قابلتهم في طرقات الحياة، وبما أن الفن السابع يعطينا مساحة من الألفة كنت ضيفًا على سينما يرتادها عشاق الأفلام، ولحسن الحظ كان الفيلم المعروض " Knock Knock" من بطولة ممثل أحببته منذ أن شاهدت سلسلة أفلامه الشهيرة المصفوفة (The Matrix) التي يعتبرها النقاد من أنجح الأفلام في تاريخ هوليوود، الفيلم الذي كسر حاجز المألوف وأثار جدلًا دينيًا وفكريًا وفلسفيًا واجتماعيًا ووطّد أركان الخيال العلمي جعل كيانو ريفز (Keanu Reeves) ممثلي المفضل إلى جانب مايكل جاي وايت، وفاندام، ودي كابريو، وصاحب اللمسة المبتكرة والأدوار المتعددة دوني ين. ورغم المشاهد الجنسية والبذاءة إلا أنه نال إعجابي وأثار بعض التساؤلات والمخاوف، ولمس وترًا حساسًا بعد أن بات الموضوع أبرز المنغصات الموجودة في الحياة الزوجية، وحديث الساعة في كثير من الأحيان.

يتناول الفيلم وبطريقة دراماتيكية تحيطها الإثارة ولا تخلو من الرعب ومفاجأة الحياة التي غالبا ما تكشر عن أنيابها، ضعف الرجال - مهما كانوا وفي مختلف أعمارهم وأوضاعهم وأفكارهم ومناصبهم وأيديولوجياتهم - أمام النساء، والرغبة الجامحة في نفوسهم لإشباع غريزتهم الجنسية، وقليل من يقاوم أمام سلاح المرأة الفتاك، فما بالك بجسدها وتضاريسها وهي عارية وتتفنن في الإغواء وإثارة الشهوة والتعذيب في ليل أمريكي مبلل بالغرابة والعواصف. لقد مثلت الفنانة الكوبية أنا دي أرماس (Ana de Armas) وكذلك التشيلية لورينزا آيزو (Lorenza Izzo) أدوارهن بتميز شديد يضعن في مصاف النجمات. الأداء المثالي للفتيات إضافة إلى كيانو أضفى على الفيلم مسحة من الجمال والواقعية، وكشف الأفكار الفوضوية والهوس الجنسي وهتك الخصوصيات المنتشرة في أوساط "الأجيال الرقمية".

ورغم أن الفيلم يفتقد إلى اللمسة المبتكرة ويعاني من التكرار وروتينية الحبكة والنهاية المفتقدة لهزّة فنية مدهشة - مما انعكس على تقييم النقاد للفيلم وإيراداته المالية نظرًا لسقف التوقعات – إلا أننا أمام عمل يتناول مشكلة حقيقية اتسعت دائرتها في عصر المغريات و"مواقع التواصل الاجتماعي"، الزوج "الخائن" أو الضعيف أمام مغريات النساء وأجسادهن في عالم تقوده نيوليبرالية متوحشة وباتت المرأة سلعة تباع في الطرقات والحانات والفنادق وتقتحم الحياة الشخصية لإغواء الرجال وهدم عرى الأسر المفككة أصلا في عصر الفلسفة المادية. لقد تخطت هذه المشكلة كل الحواجز وطرقت معظم أبواب الأسر بطريقة أو بأخرى، وحولت الحياة الزوجية إلى مطبات مليئة بالشكوك والشجار وربما الطلاق، ولم ينج من المتاهة أحد سواء كان قديسًا راهبًا، أو عاشقًا ولهانًا، أو سياسيًّا محنكًا، أو رياضيًّا مشهورًا، أو فنانًا عالميًّا، أو

شابًّا مفتونًا بالنساء ومعاشرتهن مما يجعل الموضوع مضحكًا ومأساويًا. وقد لخصت جينيسيس (لورينزا) هذا الموقف في نهاية الفيلم بمشهد حزين.

لقد أرهقني الفيلم بالخواطر وأبعدتني التساؤلات عن الانخراط في الأجواء الاحتفالية، وبتّ وحيدًا يكتنفه الصمت في وسط همسة حانية وضحكة صافية تعلوان في قاعة باردة وخافتة الأنوار، كنت أتساءل لماذا حرمنا من السينما وكم ماتت موهبة فنّية بسبب الكبت؟ ولماذا الجمهور الصومالي كان يتذوق الفن والأدب ويحضر المسرحيات بل ويتفاعل معها تضحكه النكات وتبكيه المشاهد الحزينة، ونحن نحارب الفن والإبداع ومات فينا الحس الجمالي؟ لقد غيّرت الحروب القلوب والأمزجة وحولت الشعوب إلى هياكل حزينة "لا يعرفون كيف يضحكون"!

في صغرنا لم نشاهد الأفلام الكرتونية ولا مسلسلات الأطفال ولم نقرأ قصص البراعم ولم نستمع كثيرا حكايات الجدّات، بل كانت الحروب تلاحقنا ثم تؤذينا وتحشرنا في أضيق الزوايا حتى تركت ترسبات من الخوف، ولم نعرف شارل بير، وجوناثان سويفت، والكساندر بوشكين والأخوان الألمانيان غريم إلا في الكبر وفي نهاية العقد الثاني عندما شرعنا في القراءة الجادة وتذوق الأدب وبذلك ظلت الطفولة المتأخرة تعبث فينا، وإلى يومنا هذا وفي منتصف العقد الرابع ما زلت أحمل تلك الطفولة وأنظر بشوق إلى الأرجوحة المتدلية من الأغصان والأحبال في المتنزهات والحدائق العامة، ويستهويني النوم على وقع السرديات الشعبية وممارسة الطفولة في الفضاء الرحب، كبرت ولم تكبر الطفولة بل هي تلاحقني في كل مكان.

كانت طفولتنا ضائعة والدماء تسيل في طرقات مدننا وابتعدنا عن وطننا نحو غربة لا تشبهنا، وفي كل الأحوال وأحلك الظروف كانت الأم هي التي

تعطي الأمل وتحمل الهمّ وتمتلك الحضن الدافئ والسلام المفقود وتروينا بعض القصص وكثيرا من الحب. الحرب الأهلية دمرت كل شيء وأبادت عصبة الأمة وشبابها، وجعلتنا أمة تعاني ورغم ذلك لم نجلس ولم نناقش عن بنيته وتأثيرات القوى المتصارعة علينا. ببساطة كنا وما زلنا تائهين في الصراعات الدائرة ولم ندرك بعد أن الاقتتال الأهلي كان إحدى تجليات فكرنا القاصر الذي لم يستطع أن يبتعد عن ركيزة الهوية القبلية ورواسب البداوة والطبائع الريفية إلى دولة عصرية يقودها القانون والتعددية الحزبية والتنافس الحر إلى سدة الحكم. لقد أخفقنا في أن نواكب العالم ونفهم أساسيات الدولة الحديثة وتمسكنا على التقاليد التي أردنا أن نطبقها على الدولة الحديثة فضعنا وضاعت الدولة! تركنا الأصالة ولم نصل إلى الحداثة.

هل نستطيع أن نبعد شبح الحروب عن أذهاننا وأن نعيش وكأننا لم ندخل يومًا حروبًا أهلية؟ هل نستطيع أن نتحرر عن الماضي الكئيب؟ أن نوثق قصصنا إذ "لكل منا قصة يجب أن يرويها"؟ لم تنهض أمة من الكبوة إلا وجعلت أسباب العثرات سلّمًا لارتقاء المجد. ولم يتقدم مجتمع وهو عالق بحمأة الماضي، ومن المثير للسخرية أن النسيان وترك الماضي أمر طبيعي إلا في قُطرنا وكأننا مجبرون على البكاء على الأطلال ودفن الرؤوس في رمال التاريخ!

يقلقني أن نقترب إلى العقد الثالث من الألفية الثالثة ونحن ما زلنا نتصارع على وطن لم يجد من ينقذه، كما تقلقني أن تسود نفس الأفكار وحتى بعد مرور ثلاثين سنة من سقوط دولتنا. لقد تغير العالم ومعه تغيرت الأحلاف والدول والاتجاهات وتبدلت المعالم، شاخت دول وانهارت إمبراطوريات وقامت على أنقاضها دول. عندما كنا دولة قوية كان الاتحاد السوفيتي يقود الحلف الأقوى عالميا وكانت الحرب الباردة في أوجّ عنفوانها، وكان "تيتو" يحكم جمهورية

يوغسلافيا بالحديد والنار، كما كانت جنوب أفريقيا ترزح تحت العنصرية والاستعمار، والسود في أمريكا كانوا يعانون من الاضطهاد والتمييز وكانوا يحاصرون على أروقة "هارليم" والأحياء الكرتونية، واليوم تغير الوضع وحكم السود أمريكا واختفت مصطلحات كانت في عهدها ذات قيمة سياسية وعسكرية رهيبة "ثنائية القطبية" "الواقعية الاشتراكية" " الستار الحديدي" "الاستالينية"، وسقط جدار برلين ودخل العالم مرحلة متقدمة من التطور واخترع الإنترنت والصواريخ الموجهة والطائرات المسيرة ونحن مازلنا ندور في المربع الأول، ونفس الفرضيات والسرديات.

الترحال.. الكتابة.. والأدب المحمول

أمام مضيفة طمس المكياج ملامحَها الأوروبية وعلى جناح طائرة تهتز وتعلو وتهبط كلما اعترتها مطبّ هوائيّ انتابتني هواجس أشغلتني عن تصحيح هذا الكتاب الذي بين يديك الآن؛ وتصويب أخطاء الكتب وتعديلها في الرحلات الطويلة عادة اكتسبتها مؤخرًا. في عمق الفضاء سألت نفسي لماذا أسافر؟ ولماذا أكتب؟ وما العلاقة بين الكتابة والترحال؟ كانت أسئلة بالغة الإيقاع وأدخلتني بحرًا من التساؤلات.

أذوب عشقًا وأشعر ببرد الراحة كلما أحجز تذكرة لوجهة جديدة، نحو قرى صارخة الألوان، أو بلدة تاريخية واهية المباني تغفو باكية على كتف النسيان. إنني أشبه الطيور أفرد جناحي وأغوص في أعماق المكان أتذوق تفاصيله ونكهته المتفردة، ولا أقبل القفص وملازمة العش، فالطيور تموت بدون الحرية، والمياه تكدر بدون حركة، وكذلك الفكرة تتوقف وتتجمد ثم تتعفن وتكون نتنة كالبالوعات إذا لم يحركها الترحال ولم تشذبها التجارب. في

السفر أحمل أفكاري وانطباعاتي عن الزمان والمكان وأحولها إلى نص يعبر عن شخصيتي التواقة إلى اكتشاف العالم بعيون قارئ وحس كاتب. ورغم أن "الكتابة الحقيقية عملية مستحيلة" إلا أنني أمارسها لأنسى الهموم وضغوط الحياة وأشباح الحروب التي تكبلنا وتزدرينا ثم تبعدنا عن تحقيق طموحاتنا وما أبسطها في كنف القتل والإرهاب؛ رغيف خبز جاف، وكوب ماء، ونوم عميق لا يقطعه أزيز المدافع ودوي الانفجارات.

الترحال يعطيني هامشًا من الحرية ومساحة للتفكير، إنه يخرجني من الفضاء الضيق إلى رحاب المعمورة، ومن القوالب الجاهزة للمدن الرمادية إلى حياة متعددة الألوان مختلفة الأذواق، وكلما أبتعد عن دياري يتسع العالم من حولي وتزداد المسافة وأتوغل في دروبه المختلطة بالثروات والثورات والدماء. أسافر لأداوي جروح الحروب بالكتابة، في بلد يغلب عليه الطابع الشفهي ونقل الأخبار والأحداث بالحكايات والقصص والأشعار، وظل الأدب محمولًا على كاهل الأدباء والمثقفين والشعراء الذين لم تتح لهم كتابة إبداعاتهم. "والأدب المحمول" حسب الناقد البريطاني جون سذرلاند (John Sutherland) في كتابه "مختصر تاريخ الأدب" هو الذي لم يرو ولم يكتب، بل بقي قابعًا في أدمغة الأدباء وأفئدتهم حتى رافقهم إلى الأجداث دون أن يرى النور، وحسب الكاتب والمترجم المصري أحمد الزناتي في كتابه "حديث الطاولة" الأدب المحمول هو الأدب غير المثبت في سجلات رسمية، الأفكار المخزنة في عقول أصحابها "المجانين"، والمحفوظة في حقيبة يدٍ صغيرة يحملها أصحابها، متنقلين من مكان لآخر، الأدب الذي ينبغي أن يعاش أولا كي يكتب.

وبعد رحيل معظم عمالقة الفن الأدب دون أن يدونوا ما كان يجيش في صدورهم حمل الكاتب الصومالي عبئًا ثقيلًا وتحديًا صعبًا يتمثل في إخراج هذا

الأدب من براثن النسيان، وهذه مسؤولية تتطلب على قدرًا كبيرًا من الخبرة والكتابة الجيدة والإلمام بخبايا الثقافة ودقة تقودنا نحو كتابة التاريخ بعيون صومالية، وكلها عوامل تلقي عليّ وعلى أمثالي من الكتَّاب ظلالًا من التأمل في ملامح حاضرنا ولمسات ماضينا وخيوط مستقبلنا. كنت أتتبع خيوط الحكايات، وعيون الأدب والشعر، وقصص بطولية تنتظر من يكتب ويروي، وأحاديث مدن ما زالت تمد يديها للكتّاب والباحثين من أجل الغوص في جذورها التاريخية. شحوب القلاع الأثرية يبكيني، وشوارع المدن المنكوبة تطبع على مخيلتي قصصًا حزينة، أين سكانها؟ لماذا ذابت ملامحها وشاخت ابتسامتها؟ هجر السكان ولم يبق فيها سوى بيوت خاوية وطرق لا يسلكها أحد. تبدو البلاد عند هجرة أبنائها كما لو كانت خالية من الحياة منذ الأزل، سكون رهيب يطبق على الأحياء، وفي ظل المليشيات الإرهابية والحكومات الفاشلة باتت الحياة حلمًا صعب المنال.

في جميع رحلاتي كانت آهات بلدي المجزأ تصرخ في وجداني وتبحر بي في موجات حزن لا ضفاف لها. وطن من إبل وأدب وشرفات مطلة على البحار والمحيطات والحضارات، ومساجد صامدة رغم غزو البرتغال وصدمة الطليان وسطوة الإنجليز وجور الجوار الأفريقي، وشعب حباه الله خصالًا حميدة ويتمتع بعقلية جبارة ورغم ذلك يعاني من الحروب الأهلية والتشريد. كانت أسئلة بعينها تلاحقني في الممرات المفضية إلى الغيتوهات، وفي ردهات الفنادق، وبهو الصالات، وعلى ضفاف الأنهار والمدن المكتظة بعتمة الغياب وأطفال أذابهم الحنين، وكنت أحمل همّ الأطراف (جيبوتي وأنفدي) اللذَين أخشى عليهما من الذوبان الثقافي، كما كنت صوتًا للصومال الغربي التي لم تجد اهتمامًا أفريقيًّا وعالميًّا وتأييدًا من المنظمات الحقوقية والإنسانية لكون إثيوبيا تعتبر رأس الهرم في الاتحاد الأفريقي سياسيًّا وبشريًّا، ولأن الأفارقة لا

يتصورون دولة محورية أفريقية تحتل إقليمًا أفريقيًّا يطالب باستقلاله كانوا يهمشون الصوت القادم من أعماق المحرقة، بل كانوا يرون الحركات التحررية في الإقليم جبهات انفصالية يجب معاقبتها ومحاصرتها.

أتهرب من غربة تقتلني في عقر داري، وبريق عيون المسافرين وملابسهم الممزوجة بالعرق والسهر تعطيني إكسير الحياة. تؤنسني رومانسيات الأدب، ويسحرني الفضاء بعظمته، والصحراء بصفائها ومتاهاتها، وصوت العندليب يدغدغ مشاعري، وأمواج البحار تمنحني شذرات من الجمال، وانسيابية الطبيعة تنسيني بؤس الصراع وقتامة الحروب، أضيع هائمًا في أحراش القارات. إنني أبحث عن عظمة الخالق في آياته الكونية، في أفول القمر وبزوغ الشمس وشفق المغيب، وتناثر النجوم في كبد السماء. أسعى سائحًا ومتأملًا يداهمني النوم في الطرقات الوعرة، وينتابني الخوف على مشارف المداخل الحدودية، وربما أتضوّر جوعًا وأنا لا أعرف لغة القوم ولا أستسيغ طعامهم، وكثيرا ما أخذ قائمة الطعام أتفحصها على مهل وأختار طبقًا لا أعرف مكوناته! وعند إحضاره تباغتني رائحته النتنة، أو طعمه المقرف، وربما يكون كراعًا أو أمعاء أو بطنًا محشوًا بالفلافل والبهارات وهذا مما لا يأكله صومالي بدوي وإن طبخت بألف نوع ونوع. كثيرًا ما تجمعني قاعات المطارات مع مسافرين توحدنا الوجهة ويقسمنا الهدف والانتماء وربما العقيدة وكذلك اللون، ورغم ذلك الطيبة الوادعة في قلوبهم لا تنضب أبدًا، وجمالية البشر لا تختفي وإن تمادينا في أتون المدنية الرأسمالية التي حولت الأشخاص إلى أرقام ومجرد سلع في الأسواق، واغتالت القيم النبيلة وكرامة الإنسان. ابتسامة مختنقة لعابرة تهرول نحو طائرة مغادرة، أو غمزة دافئة لسمراء في الكرسي المقابل، أو لمحة صبي غارق بالبراءة وربما البكاء، أو لقاء مع مثقف تمنحني جرعات من الحيوية والنشاط.

في رحلتي الأخيرة كان بجانبي أمريكي أشقر باهت الوجنة دافئ العينين مدور الرأس يبتسم بسعة موغلة في الثقافة الأمريكية المرحة، جاء من ولاية غارقة بالبرودة أطلق عليها الأمريكيون " نجم الشمال" وأطلق عليها الصوماليون "ثلاجة العالم" بعدما أصبحت وطنًا بديلًا لهم. درس الهندسة المدنية دون أن يكابد عناء البناء ومشقة المقاسات ورسم الشرفات على الأوراق، بل دلف إلى ممارسة هوايته المفضلة وهي الموسيقى بأنواعها، حتى أصبح بارعًا في المقامات الموسيقية، وذاع صيته كملحن ومغنٍّ يدير مدارس منتشرة على ربوع العالم تدرس الموسيقى للبراعم.

لمسات الفن كانت واضحة على كلامه وأفكاره. تحدثنا عن الفن والموسيقى التي أحبها ولا أتقنها وسألني ومرارة السؤال تقطر من كلماته لماذا العالم مليء بالصراعات والدماء ولغة القوة؟ ولماذا لا يتذوقون الموسيقى التي تستطيع أن توحدهم وتضمد جراحهم؟ وبعد حديث دام ساعة أخبرته أن زوجتي تعيش في ولاية مينيسوتا الأمريكية. فغر فاه بدهشة! وقال وقد اتسعت عيونه وكادت أن تخرج من محاجرها إذن لماذا لا تزور أمريكا؟ بالتأكيد ستعجبك أقوى وأغنى دولة في العالم. قلت – وذكر الشريكة أثار شجوني – لعنة الأوراق يا ريتشارد! فالأوراق التي تسمونها "جواز السفر" ونسميها نحن أوراق العبودية في القرن الحادي والعشرين أغلقت المنافذ وحشرتنا في أضيق الزوايا! ولكن يا ريتشارد لماذا تكبلنا الأوراق وتحدد حرياتنا؟ لماذا تعطي مجموعة من الأوراق شخصًا حرية مطلقة يتجاوز الحدود ويقف له الجنود وتستقبله المطارات بالابتسامة والترحاب بينما البعض يعاني من الحرمان والمضايقات والتمييز العنصري؟ ألسنا بشرًا متساوين في الخلقة والكرامة؟ قطعتْ المضيفة كلامي حول الجنسية والأوطان بابتسامة باهتة، وبعد برهة أغمض عينيه بامتنان وأخلد إلى الكرى غير آبه بثرثرتي!

في رحلاتي المتعددة تجولت في بلدان أفريقية تشبهني وأنتمي إليها وتركت فيّ بعض الأحياء ذكريات لا تنسى، واستغربت عندما عرفت أن معظم الأفارقة يحملون اسمين مختلفين. اسم ينبع من التراث ومن الثقافة المحلية يستخدمونه في البيوت والأفراح والحب والحياة اليومية، وآخر استعماري لا يمت بصلة إلى هويتهم الأفريقية، بل يستخدمونه في الأوراق الرسمية والدوائر الحكومية، وهذه كارثة تدل على أن ثقافة المحتل ترسخت في أفريقيا حتى تغيرت معتقداتنا ومبادئنا وهوياتنا. وكذلك جمعتني الحياة مع بعض الشعوب الآسيوية وحياتهم الممزوجة بالجد والجشع أيضا. وتعرفت على الشعوب والدول العربية التي تربطني بهم روابط أعمق وأصلب من جميع الروابط حتى تلك التي تربطني بأفريقيا كشعوب، ولا غرو فعلاقة الصومال بالعمق الأفريقي بدأت عند بزوغ الدولة الحديثة، بينما علاقة العرب قديمة ومترسخة في الوجدان والحس الجمعي للصوماليين، ولا أدري لماذا الأجداد لم يكوّنوا علاقة صلبة مع الأفريقيين الذين يحملون ملامحهم؟ ولماذا انصهرت جميع الهجرات العربية والفارسية إلى الصومال في بوتقة واحدة؟ ولماذا لم يستطيعوا تغيير اللسان الصومالي مثلما غيّروا ألسنة الدول الأفريقية العربية؟

أدب برائحة الإبل

في مجتمع شديد الخصوصية وظل حاجزًا ثقافيًّا بين العرب في الشمال وأفريقيا في الجنوب كان الصوماليون منذ القدم يملكون أدبًا برائحة الإبل وعبق اللبان وتعاريج التاريخ. شكَّل رافدًا للثقافة والملامح، وحياة أمة طالما وُصفت بأمة الحرب والشعر، وبلدًا رائدًا في محيطه قبل أن تنهار حكومته وبالتالي انهار معها الأدب وكثير من المظاهر الحضارية، حتى بدت الصومال في المخيلة العالمية دولة الفشل والمجاعة والقرصنة، وأمة لا تملك ماضيًا مشرقًا وثقافة بامتداد المحيط وأدبًا بقدسية الشعر والحِكم في بلاد البونت.

رغم اقتران الأدب بالشعر في المخيلة الشعبية الصومالية لكونه بعيدًا عن التأثير الغربي الذي أدخل القصص والروايات في الأدب الأفريقي الحديث إلا أن الأدب وبمختلف أنواعه يعتبر ورقة شفافة تعكس الخيال المليء بالجمال والشعر وبحر الصراعات وأنهار الأغاني والألحان المعبرة بالإيقاعات المتأصلة في عمق التراث الذي يتكئ على لغة زاخرة بالجمل والألفاظ والمفردات والتراكيب، كما يعبر عما يدور في أوساط الشعب وتصوراته للحياة والواقع

والمستقبل والماضي وطريقة تفكيره وأحاسيسه وتعاطيه للأحداث والتغيرات التي تطرأ في محيطه. ومما يجعل الأدب الصومالي مهمًا في هذا الظرف الدقيق كونه يعتبر متحفًا لوطن كان مدخلًا شرقيًّا لأفريقيا، وأمة ظلت وبحقب مديدة شفهية تعتمد الكلمة في نقل الأدب والفنون والألغاز والألعاب والأساطير وسرد الأحداث. وكونه يحمل في طياته الشيء الكثير من التراث وحقائق عن الإنسان الصومالي وأصله الذي لا نجده في أروقة الكتب وبطون القصص المكتوبة، إذ كان الشعب الصومالي يحفظ تاريخه وعاداته وأنسابه وأيامه عبر قوالب أدبية قاومت المتغيرات وبقيت ماثلة إلى يومنا هذا. والقصص المروية في بطون الشعر والحكايات الشعبية توثيق لحضارة أمة وماضي شعب ترك بصماته الواضحة في منطقته.

ورغم تنوع الأدب الصومالي إلا أن الشعر يُعتبر عمودَه الفقري ومنبعًا مهمًّا للثقافة ومن أهم أنواع الأدب شيوعًا واستخدامًا في الأوساط الصومالية منذ قرون، حتى أصبحت الصومال بلد الشعر، وكان الشعر وسيلة هامة يستخدمها الشاعر ليوصل صوته إلى الجماهير، كما كان متنفسًا مُهمًّا يبث في طياته همومه ومشاكله والمشاعر التي تختلجه، وتارة كان سيفه الذي يدافع به عن قومه وعشيرته ووطنه أو القضية التي يؤمن بها، ولذلك كان الشعر في التاريخ الصومالي ترسًا يحمي القبيلة أو الدولة، وبريدًا للحب، وعنوانًا للجمال، ولافتة للترحيب، وطيفًا سابحًا من الخيال الذي يبث فيه الشاعر القلائد الشعرية المزركشة بأجمل الأنغام وأشجاها وأصدق المشاعر وأدفئها. والشعر الصومالي متفرد بطبعه ومتميز بكونه جزءًا لا يتجزأ من الأدب الأفريقي الذي له خصائص أدبية معينه تفرضه الحياة والواقع والميثولوجيا الأفريقية العريقة، كما هو أدب مشبع بالتراث والتأثير العربي بحكم الموقع وروابط الدين والدم والوجدان والهجرات العربية المتعاقبة نحو المشرق

الأفريقي مما جعل الأدب الصومالي عربيًا بطريقة الأسلوب والاستهلال والأداء وتناول الأحداث.

وخلال المسيرة الطويلة للأدب الصومالي كان الشعر رمانته ولحنًا يعزفه الحكماء والأدباء والسلاطين والعشاق في مختلف الأعمار والأمصار الصومالية، حتى أصبح الشعراء مفخرة القبائل وحفظت الذاكرة الجمعية أسماءهم، وأصبحت السلاسل الشعرية مثل غوبا (Guba) مشهورة تتناولها الألسن والأجيال ويتناقلها السُّمار في المجالس الثقافية والأدبية والفكرية والدينية. وكان الشعر الأصيل يحمل الذكريات والحنين للأطلال، ويصور الملاحم البطولية وملامح الحياة، ويصف الكون والحياة والإبل، والمرأة التي أبدع الصوماليون في وصفها سواء بلونها الأسمر الأنيق وقامتها الهيفاء وثغرها الباسم وجيدها الطويل وشعرها الأسود الفاحم. والجواد مفخرة الرجال، ومما حفظ التاريخ أن السيد محمد عبد الله حسن فاق الشاعر الجاهلي امرأ القيس في وصف ومدح الفرس، إذ كان مدح قائد الدراويش لحصانه المفضل (حِينْ فِنِينْ) أبلغ لغويا من وصف امرؤ القيس لجواده في معلقته الشهيرة "قفا نبكِ".

لم تكن الصومال دولة هامشية في تاريخها، بل كانت مسرحًا للأحداث ونضال الأدب والقوافي والنصال، ولكن وبعد الحروب والتشريد ووجود أجيال جديدة ولدت في المهجر بعيدًا عن الأصالة والتقاليد من المطلوب دراسة الأدب الصومالي وخاصة الشعر والتعمق في جميع جوانبه، واستقصاء ما حوته الكتب القديمة، وأرشيف المستعمر، وألسنة المعمرين الذين يشكلون مكتبة عامرة وبموتهم تموت المعرفة والعادات التي كانت بعيدة عن الكتابة إلا النزر القليل المكتوب باللغة العربية التي معظمها أوراد وترانيم صوفية

وأشعار دينية ووطنية تنتمي إلى حقبة الإمام أحمد الغازي وثورة الدراويش وامتدادهما، إضافة إلى بعض الأدب الصومالي الذي وجد في المكتبات الأوروبية.

في عهد المستعمر الأوروبي كان القطر الصومالي الكبير يعيش حياة البداوة والارتحال والاعتزاز بالنفس والحروب سواء كانت ضد أباطرة "أباسينيا" أو فيما بينهم، أو ضد الغزو الأوروبي، وحارب الصوماليون ضد أربعة دول أوروبية ومنعوا من الاختلاط والتمازج الثقافي والفكري مما أدى إلى عدم وجود أي أثر كولونيالي في الصومال، حتى بعد مكوث أوروبا أكثر من ٤٠٠ سنة بدءًا من النجدة البرتغالية في القرن السادس عشر حتى مغادرة آخر جندي أوروبي من الأراضي التاريخية للصومال عام ١٩٧٧م.

وفي تلك الفترة ومقارنة بالأدب في أفريقيا الغربية أو الجنوبية لم يجد الأدب في شرق أفريقيا عمومًا والصومال خصوصًا رواجا من قبل المستعمر الأوروبي الذي ألّف كثيرًا عن الغرب والجنوب ولا نعرف سبب هذا العزوف ولكن كوّن في غرب أفريقيا الموانئ التي تشحن العبيد إلى أوروبا والكثافة القبلية والسكانية، ووصول أوروبا قديما إلى الجنوب، إضافة إلى عنصر الدين ونظرة الإنسان الصومالي للأوروبي، وانطباع الأوروبيين لاسيما بعد مقتل الرحالة الألماني فون دير ديكن K.K.Vonder Decken الذي قتل بطعنة حربة في مدينة "بربرا" شمال الصومال كما ورد الكاتب والمؤرخ الإنجليزي البارز باسيل دافيدسون١٩١٤ – ٢٠١٠م (Basil Davidson) في كتابه القيم «أفريقيا القديمة تكتشف من جديد» (Old Africa Rediscovered)، والمضايقات التي لقيها الرحالة الإنجليزي ريتشارد بارتون Richard Burton

صاحب كتاب «أول أقدام في شرق أفريقيا» First Foot-steps in east Africa جعل الأدب الصومالي بعيدًا عن الاهتمام الأوروبي.

إضافة إلى أن الأمة الصومالية لم تكن في تاريخها الطويل أمة تدون الأحداث وتكتب الوقائع والأخبار، بل كانت أمة غارقة في الوسائل البدائية وتستخدم المشافهة والتلقي كوسائل رئيسة للاتصال اليومي، سواء كان هذا الاتصال داخليًّا أو خارجيًّا، وكانت تحفظ ثقافتها وأساطيرها، وألعابها، وأيامها المشهورة، وحكاياتها المتناقلة جيلًا بعد جيل بالمشافهة والارتجال، مما جعل الأرشيف الصومالي مليئًا بالتراث الشفهي الخازن للماضي بكل تفاصيله، كما حفظ التراث الشفهي الصومالي بين دفتيه المحفوظة في الذاكرة الحية للصوماليين عادات وأعرافًا، وفنونًا، وأغاني، وأهازيج، وأشعارًا شكّلت القلب النابض للثقافة الصومالية. وتعد ثقافة الشفاهية والارتجال ثقافة شائعة وعادة منتشرة بين الشعوب والمجتمعات بشتى أنواعهم وأعراقهم وبلدانهم، إذ نجد أنها كانت أعرق طريقة عرفتها البشرية لنقل الأخبار وحفظ التراث وتخليد اسم الحضارات، كما أنها كانت الوسيلة الوحيدة التي يعبر الناس فيها عن مشاعرهم وأحاسيسهم وخواطرهم الإنسانية، وكان الشعب الصومالي من بين هذه المجتمعات التي اعتمدت على طريقة النقل والتلقي ولم تعرف الكتابة والتدوين إلا لاحقًا.

والأسباب الرئيسة التي جعلت الشعب الصومالي لا يكتب هو بعده عن المدن والتمدن، والأنماط السلوكية السائدة للفرد الصومالي المائل إلى سرد الأفكار والأحداث وحفظ الوقائع والتفاصيل بدل الكتابة والتوثيق، إضافة إلى طبيعة الحياة الذي كانت تدور أحداثها في البادية ومتعلقاتها، من المواشي،

والزراعة، والفروسية، والأشعار، والحروب، سواء كانت الحروب صراعات خارجية ضد الأباطرة الذين حكموا البلدان المجاورة، والشعوب القاطنة في شرق القارة، أو الحروب القبلية الداخلية التي كانت تبدأ من المساقي ومواطن الكلأ، أو الإبل محبوب الصوماليين في كل العصور، أو المرأة وحفظ شرفها. كما كانت أمة لم تصل إليها الكتابة وأدواتها التي دائما ما تُعدّ صنوًا للتمدن والحضارة. ومن المفارقات العجيبة أن الأمثال والحكم والألغاز والأساطير والأدب والتاريخ والحكايات الصومالية الشفهية المتناقلة عبر الأجيال التي لم تُكتب بعد تعتبر مخزونًا ثقافيًّا هائلًا وموردًا علميًّا كبيرًا فقدناه بسبب عدم التدوين والكتابة، كما يعتبر أكثر بكثير من المكتوب سواء كتب في اللغة الصومالية، أو العربية، أو الإيطالية، أو الإنجليزية لاحقا، وهذا مما جعل الصومال بلدًا غامضًا، وشعبًا لا يُعرف عنه إلا النزر القليل حتى بين أبناء محيطه الأفريقي والعربي.

إذ من العجب أن نجد أن معظم شعوب العالم لا يعرفون شيئًا عن الصومال، رغم أن أعدادًا هائلة منهم يعيشون في جميع القارات المأهولة، وذلك بندرة الكتب المتناولة لهذه القضية بعيون منصفة تعرف الوطن بكل ألوانه وتفاصيله، والانعزالية الفطرية للإنسان الصومالي الذي لا يحب أن يشارك مع غيره أحداثه الخاصة، وحكاياته الشعبية، إضافة إلى التعصب الشديد للغتهم، والحالة الشفهية السائدة إلى يومنا هذا في حياة الصوماليين. ولا يجد الباحث الغربي أو العربي كتبًا تتعلق بالشأن الصومالي أرضًا وشعبًا، سواء كانت سياسية أو ثقافية أو دينية لقلة الكتابة والتأليف عكس الروايات الشفهية التي يحفظ منها الشعب الصومالي كمًّا هائلًا منها، ورغم التغير الكبير

الذي طرأ على حياة الصوماليين من الحروب والصراعات والهجرات الكثيرة إلى شتى القارات المأهولة، ما زالت الرواية الشفهية سيدة الموقف والطريقة الوحيدة التي يتناقل عبرها الأجيال أحاسيسهم ومشاعرهم وحالاتهم الإنسانية.

واليوم وبعد العولمة الثقافية والتداخل المعرفي في الكون أصبح نشر الثقافة والأدب الصوماليين من التحديات الماثلة أمام المثقفين والكتاب لا سيما وأن الوطن يواجه سيناريوهات مرعبة سياسيًّا وثقافيًّا وفكريًّا. إن نشر الثقافة والكتابة عن أمة كانت بعيدة عن الكتابة والتوثيق إلى العالم الخارجي، لا سيما وأن الصومال كانت غارقة في الصراعات في العقود الأخيرة التي شهد فيها العالم انفتاحًا حضاريًّا ومعرفيًّا وتمازجًا أدبيًّا مسؤولية على عاتق كل من يملك موهبة بإمكانها أن تقدم الصومال وأدبها وفنونها إلى العالم المختلف.

لقد أهمل الصوماليون ماضيهم الأدبي والحضاري كثيرًا لأسباب منها انعدام الأمن ودولة تحمي التراث، ومنها أن الكُتّاب الصوماليين ولعهد قريب كانوا قلّة، وبعد الانهيار والهروب إلى أصقاع العالم أنتج التبعثر الجغرافي حالة جديدة، وحوّل الصوماليين من شعب شفاهي لا يكتب إلى شعب يكتب ويسجل ويساهم في تنمية وإثراء المعرفة، ويعرض تاريخه وتراثه للخارج عبر الكتابة المنظمة. ورغم أن المحاولات الخجولة للكتابة بشتى أنواعها بقيادة العلماء وأهل التصوف والطرق الدينية كانت موجودة في الماضي، إلا أنه في العقود القليلة الماضية ظهر من الصوماليين كتاب مهرة في كل اللغات الحية وفي كل الحقول مما سهل للعالم الخارجي معرفة الوطن وفهم الشخصية الصومالية ومميزاتها، وظهر في الساحة الثقافية مؤلفين وروائيين عالمين في النصف الثاني من القرن المنصرم وبادية الألفية الجديدة. ويعتبر الجيل الحالي

من الصوماليين الأكثر إنتاجًا والأغزر كتابة، ونتمنى أن نرى في السنوات القادمة أعدادًا هائلة من الكتّاب والمؤلفين الذي يبرزون الجوانب المغيبة لتراثهم، كما نرجو منهم رد الاعتبار للأدب الصومالي الذين شارف على الاندثار وأن يقدموا للعالم تراثهم المليء بالجمال والحكم.

تحولات الأدب الصومالي..

لقد احتل الأدب مكانة بارزة عند المجتمع الصومالي في مختلف مراحله وأجياله، فكان خزينة حكاياتهم وقيمهم وسجلات تاريخهم وتراثهم ومتاحف بطولاتهم وحِكمهم والمحرك الأول لشعب عشق الأدب، وظل شفهيًّا ينقل الأخبار بالأشعار. وقد قُرن الأدب صوماليًا بالنضال والدفاع عن المقدرات والثوابت الوطنية حيث لا يوجد - عبر التاريخ - كفاح وطني خاليًا عن "أدب المقاومة" وشعراء بارزين حوّلوا الأدب إلى أسلحة فتاكة واستطاعوا تخليد قضيتهم عبر قصائدهم، بل كانت المقاومة تأخذ طابعًا وطنيًّا ودينيًّا قويًّا في مشاعر المجتمع بضمّها عظماء يتقنون الأدب ومخاطبة الشعب بأشعار يحرك وجدانهم. ومن الأمثلة الشهيرة في هذا المضمار السيد محمد عبد الله حسن الأب الروحي للحرية الصومالية الذي كان شاعرًا فحلًا أتقن أبواب الشعر وأغراضه واستخدمه لصالح قضيته.

ولاحقا وفي سنوات الكفاح المسلح ضد الحبشة المحتلة على الإقليم الصومالي (أوغادين) ظهر شعراء بارزون ناضلوا بقصائدهم مثل طودان

(١٩٤١ – ٢٠١٣م) الذي يعتبره البعض أنه ينتمي موهبة وإبداعًا إلى طينة العظام الذين عاشوا في العصر الذهبي للشعر الصومالي (القرن الثامن عشر، التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين) وإن تأخر زمنه، وكذلك الشاعر المناضل هيلالي صاحب الملاحم الشعرية والقصائد الحماسية، ومثلهما الشاعر الإسلامي أبشر بَعدْلِي الذي دافع بقصائده عن ثوابت الدين في زمن كان الملتزمون يعيشون غربة حقيقية في وسط مجتمعهم، لقد ركز الشاعر على ترسيخ القيم الإسلامية ومحاربة العادات الضارة الوافدة، ولا أنسى عبد الرزاق وإن لم يكن معروفًا مثل هؤلاء إلا أنه كان شاعرًا عبقريًّا يحمل حسًّا إسلاميًّا في أبيات قصائده الملتهبة.

السيد ورفاقه الأشاوس استخدموا كافة أنواع الأدب وخاصة الشعر لإلهاب العواطف وبث الحماسة ونشر فضائل المقاومة ومدح أبطالها وذم المتخلفين عنها، والحث على محاربة المحتلين، وهجو أذيال الاحتلال والمتقاعسين حتى باتت أشعاره أحاديث السُّمار وحكايات الركبان وحقلًا خصبًا ساعد الكتاب والمؤرخين لفهم الدراويش وأيديولوجيتهم. وبعد مئات السنين من بدأ شرارة جهادهم ضد الطغيان الأوروأفريقي ما زال الصوماليون يحفظون أيامهم ويعرفون تاريخهم ويصونون تراثهم ويتبادلون حكاياتهم ويعشقون بطولاتهم ويسردون تفاصيلهم، وما ذاك إلا لقوة الشعر وجزالته وجذوة الأدب المتّقدة في نفوسهم حتى تعلقوا بأبطال الدراويش ومآثرهم، وصار إسماعيل مري وحسين طقلي وآخرون أيقونات وطنية وقامات أدبية وقيادية بارزة، ولو لم تكن الأمة تتذوق الشعر وتمتلك حسًّا جمعيًّا يحب الأدب لكان ماضي الصومال يختفي وراء تتابع طبقات التاريخ وطيات النسيان.

لقد اهتم الصوماليون في تاريخهم بالشعر وجعلوه ذروة إنتاجهم الأدبي وحظي بمكانة لا يصل إليها جميع أنواع الأدب، فالشعر ديوان حاضرهم وماضيهم وسجلًا أخلد الأحداث ونقل إلينا جانبًا من سلوك الأجداد ويومياتهم المترعة بالتنقل ومقارعة النصارى في المشرق الأفريقي. وبما أن للأدب سطوته كانت القبائل تهادن وتتصالح وتتصارع وتغير بعضها على بعض خشية الهجاء وأن يخلد ذلك في الذاكرة الأدبية لمجتمع لا ينسى الأدب ويحفظ الشعر مهما تقادم عهده، وهكذا صار الأدب بشتى صنوفه العنوان الأبرز للمجتمع حتى لقب الصوماليون بأمة الشعر. وحافظ الشعر على هويتهم وخصائصهم وحمل قصائد مشبعة بالوطنية والولاء والاعتزاز بالموروثات والذات. ولم يكن من السهل ترميم الهوية الصومالية بعد أن قسم الأرض إلى خمسة أقاليم تخضع للاحتلال إلا بوجود أدب مترع بأشعار وأغاني ومسرحيات عابرة للحدود الوهمية وترسخ في الوجدان وحدة الأمة وإن تقاسمت الآلام والمرارة واغتيال الأمل وراء قضبان الحدود ومخرجات مؤتمر "برلين".

ورغم المحاولة الاستعمارية الجادة لتضييق الخناق على الأدب الثائر وإغراق الشعب بالدوغما الفكرية إلا أن الأدب كان جامحًا بعيدًا عن المحتل ومزاجه الغثائي فكان سلاحًا فتاكًا واجه به الصوماليون الترويكا الأوروبية (فرنسا، بريطانيا، إيطاليا) وأجبروهم على الرحيل. وبعد الاستقلال بدأ الأدب ينتعش ويحرك الجموع الصومالية الظامئة إلى الحرية، ومن الشعراء الذين برزوا في تلك الحقبة الشاعر عبد الله سلطان تمعدي الذي ظل معلمًا من معالم الحرية في ربوع "الصومال الكبير".

وبعد ثورة أكتوبر (الانقلاب العسكري) عام ١٩٦٩وجد الأدب اهتمامًا خاصًّا من الحكومة الصومالية فبنت المسارح وشكّلت الفرق الموسيقية وشجعت الكتابة باللغة الصومالية واعتمدت على الحرف اللاتيني، وانغمس الناس في الفن الغنائي فأخذ دور الشعر يتضاءل فيما كانت المسرحيات والأغاني تسيطران على المشهد الأدبي؛ ويعزى هذا إلى جغرافية الدولة الوليدة التي لم تستطع ضم أقاليم تعتبر منبع الأدب الصومالي، إضافة إلى الحكومة التي كانت تشجع على الأغنية والمسرح على حساب الأدب التقليدي، ولا ننسى الدور التحفيزي والامتيازات التي كان ينالها من يكتب أو يلقي قصيدة عن تمجيد الثورة و "الجيش الأحمر" والاشتراكية العلمية، ومن هنا ابتعد شعراء بارزون عن الساحة خشية من "الرقيب الأحمر" وصونًا لقدسية الشعر ومسؤولية الكلمة. وعموما كان الأدب في تلك الفترة يخدم ثورة أكتوبر وأهدافها لذا كان يبعد عن النصوص الخالية عن الرموز الماركسية والإيحاءات الاشتراكية وتمجيد الشيوعية عن الأثير والمجالس الثقافية والمعاهد العلمية والجامعات والمدارس، أما النص الذي يدعو إلى اعتناق الاشتراكية العلمية التي تحرر العباد من طغيان النيوليبرالية والرأسمالية المتوحشة – حسب سرديات الشيوعية – فكان يجد رعاية الدولة.

لقد حاول عرّابو الاشتراكية الصومالية تدجينَ الشعب وتوجيهه على نحو يقرّب المجتمع إلى الثقافة الشيوعية وبقوالب محلية وأسلوب يدغدغ مشاعر البسطاء، فكانت خطب الرفيق " سياد برّي" في بداية حكمه رنانة وذات نغمات وطنية وقومية حالمة يجملها صوت جهوري وحبال صوتية عميقة وأبيات شعرية مفعمة بروح الثورة والكفاح وتحقيق أحلام طالما لامست عقول الصوماليين وقلوبهم دون أن تتحقق على أرض الواقع. كانوا يرونه مجدد مآثرهم وموحد وطنهم، ولكن لم تدم هذه التوقعات وانكشف زيف

الماركسية عندما مارس الاستبداد وحاول إبعاد الدين عن المسرح السياسي وتطبيق المادية التاريخية وتفسير النصوص الدينية حسب مزاج الدولة. وبما أن الدين يشكل هوية جامعة في القُطر الصومالي كانت المساجد أكثر تأثيرًا من المسارح والإعلام الحكومي، وكانت تغسل "أدران الاشتراكية" المستبدة وتدعو عبر أساليب تقليدية إلى تطبيق الشريعة والعودة إلى الوحيَيْن لرسم طريق جديد يوصلنا إلى سعادة الدارين بعد أن جربنا الديمقراطية الرأسمالية والشيوعية الإلحادية. وكان الشعر الديني والطرق الصوفية وبعدها الحركات الإسلامية تسهم في بناء وعي جمعي يقاوم ضد الأفكار الوافدة "النفايات الأيديولوجية" ويرسخ المفاهيم الإسلامية.

وبعد سنوات من جهد الدولة ظهر على الساحة أدباء وشعراء تأثروا بنظريات جدانوف الثقافية وتشبعوا بالمبادئ الماركسية بعد أن درسوا الفن والأدب والمسرح في الصين والاتحاد السوفيتي وكوبا وغيرهم من الدول اليسارية، وكانت الفترة الذهبية لهذا الجيل السنوات العشر التي تفصل بين وصول العسكر إلى الحكم وحرب ١٩٧٧م الذي أدى إلى هوّة لم تستطع الأطراف – الصومال والدول الشيوعية - ردمها أبدًا، ومن الشعراء البارزين الذين انحازوا للاشتراكية وتبنوا مبادئها بل وجعلوها من صميم التقاليد الصومالية حاج آدم أفقلوع، ويعتبر الشاعر الأديب الراحل عبد القادر حرسي يميم من فطاحل الشعراء الذين مجدوا الاشتراكية في أشعارهم، وكذلك لا ننسى أغاني عبدي محمد أمين الشيوعية، وغيرهم كثير في حقبة كان الإنتاج الأحمر رائجًا فكرةً وسلاحًا. وفي هذا الصدد أردت ترجمة نصوص الشعراء ولكن لم أتجاسر ولم أتحمس أن أترجم أشعار الأدباء ونصوصهم لأن "الشعر يضيع في الترجمة" كما يقول المختصون في هذا المجال، ويفقد كثافته وكثيرا من جمالياته ومعانيه ومضامينه.

وأخيرا ابتعد اليسار وترك الصومال يواجه مسيره، وبعد أن جَرَف تيارُ الحاجة الصومالَ نحو الرأسمالية لم يصمد "الأدب الأحمر" أمام الأدب الرأسمالي المتدفق على الوطن بأفلامه ورواياته المكتوبة وأغانيه ومسرحياته المدعومة بالمؤثرات إلى أن انحسر واختفى سحره نهائيا عن الخارطة الثقافية. ورغم ذلك كانت للفلسفة الماركسية تأثيرها الواضح على مثقفي وأدباء الصومال وأفريقيا عموما في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، وكان الأدباء الصوماليون ضمن آلاف من كتَّاب وأدباء أفريقيا الذين ناصروا الفكر الماركسي ورأوا أنه يناصر القضايا العادلة ويناهض التمييز العنصري والطبقي ويرفض العبودية ويوزع الثروة بطريقة عادلة. لذا تغلغل في جميع المستويات وبات البلد مشبعًا بالمفاهيم والمظاهر الاشتراكية على نحو جعل "مقديشو" موسكو صغيرة.

ورغم ابتعاد الصومال عن التيار السوفيتي بعد هزيمة الصومال الغربي، ونهضة الفن الغنائي والمسرحي الذي فاز في مناسبات كثيرة في أفريقيا، وظهور كتّاب تجاوزت شهرة أعمالهم الأدبية حدود الوطن إلى العالمية مثل نورالدين فارح إلا أنه وكغيره من الأدب والفنون الأفريقية كان ضحية للحروب الثقافية مما جعله أدبًا هامشيًا لم يجد إنصافًا من الدوائر الثقافية العالمية التي يهيمن عليها الغرب الغارق بالتنميط.

النقد الشكلاني البعيد عن المهنية للأدب الأفريقي مازال يسيطر على الغرب الذي يرى أنه المركز والآخرون هوامش وديكورات ليس لهم أدوار حقيقية في الحقول الإبداعية ولا يستطيعون إنتاج أدب راقٍ يُرضي ذوق القارئ الناضج (الغربي) لذا يرون الأدب الأفريقي ساذجًا وغارقًا بالتفاهة والسطحية ولا يحمل أي بصمة إبداعية أو دهشة أدبية، ولا ينفك أبدا عن

المعتقدات الدينية والصدمات الاجتماعية العنيفة، إضافة إلى السياسة الأفريقية التي تعاني من التبعية والمراهقة والابتذال.

ومن المؤسف أن تسيطر هذه النظرية على الذهن الأفريقي كاتبًا وقارئًا حتى وصل بنا الحال إلى أن تعمقنا في ازدراء لغاتنا وثقافاتنا وأسلوب كتابتنا. ومن المبكيات التي مازالت موجودة إلى يومنا هذا أن على الكاتب الأفريقي لكي يكون أدبه ذا شهرة عالية يجب أن يرضي ذوق "الرجل الأبيض" وأن يكون الأدب حاملًا بصمات غربية ودلالات كولونيالية وفي قالب أدبي غير متسق ومنسجم مع الطبيعية الأفريقية وأدبها، كتناول أفكار ومفاهيم غير موجودة في بيئته، ومعالجة مشاكل لا يعرفها المجتمع الأفريقي، إضافة إلى الإباحية والجنس المكثف في بنية النص السردي، وتشجيع التحول الجنسي والمثلية. إنهم يقحمون جسد العمل الأدبي في آراء شاذة ليتحول إلى هجين لا يحمل بصمات الغرب ولا أفكار الأفارقة، وكل هذا استعطافا "للآخر المختلف" ومن أجل أن يلقي الناقد الغربي النظرة على العمل لينتشر ويجد رواجًا يليق به!

بين مشهدين

في ليلة ربيعية مقمرة وفي فناء منزل مطل على المحيط كنتُ أستمتع بصدى الأمواج وأنغام الطبيعة بعد منتصف الليل، هاجني الجمال الناعس في أهداب المكان فعزفت أوتار الحنين وأعادني الشريط الساحلي لـ"كسمايو" إلى القرون القديمة وحثّني على تشريح جثّة التاريخ مما جعلني أعيش بين مشهدين متناقضين مشهد بعراقة الصومال وآخر ببؤسها الذي طال حتى كاد أن يطغى على ماضيها وتاريخها.

الواقع المرير يعذبني بوخز الكلمات وتأنيب الضمير فأغتال الألم بمزيد من جرعات الثقافة التليدة لأمتي، وأهرول نحو مرافئ النسيان أتأمل بشرود لذيذَ صفحة التاريخ وشفق المغيب وأشرعة السفن المتَّجهة إلى صحراء الشمال وأدغال أفريقيا ومجاهيل آسيا في زمن الرحلات التاريخية عندما كانت الطرقات القديمة ـ وخاصة طرق الحرير والتوابل والبهارات ـ ترسم السياسة التجارية ومفهوم العلاقات الدولية والتحالفات المبنية على المصالح والتداخل الثقافي والاجتماعي والحضاري والديني عبر هذه الطرق الممتدة من

أفريقيا إلى الهند وآسيا الوسطى ومن الصين إلى الجزر الأيبيرية عبر مصر والدول القديمة.

المشهد الأول:

عبر المشهد الأول أطالع الأيام المتألقات والحضارات القديمة لبلدي والأسماء العتيقة لبعض المدن وإن اندثرت بمرور الأيام وضعف الأحفاد، حيث كانت المدن الصومالية القديمة المطلة على الساحل الغربي للمحيط الهندي والبحر الأحمر مثل مقديشو (Mosylon) وزيلع (Avilietes) وكسمايو (Gondal) وبر برا (Malao) وغيرهم من المدن الصومالية الموضحة في الخرائط القديمة للعالم تنبض بالقوة والحضارة وتساهم في التكامل التجاري العالمي عبر موانئهم.

طال بي المشهد فعزفت طبول الدهشة وأنا أغترف نهرًا من الابتسامات العذبة تنساب من ثغر سمراء ذات عينين كحلاويتين تسقى الحي وضفائرها تتدلى على ظهرها المكتنز، الحورية تجود بنظرات صومالية باذخة وترسل مشاعرها الحالمة إلى قلوب تتسكع على أرصفة الحب وتردد أبيات بالغة التأثير للفيلسوف الشاعر محمد الهَدْراوِي الذي مزج الأدب بالفلسفة وعجن الحكمة بالتجارب حتى أصبح أيقونة الفن في الصومال وممن ساهم في إثراء المحتوى الأدبي للفن الصومالي، الأبيات زاهية كورود "بُرعُو"، وعميقة كقصائد "جِكْجِكَا"، وعريقة كمنارات عَدن وقلاع صنعاء وحوريات مأرب التي تذكر الشاعر فرحة طفولية منقوشة على جدران الموهبة وطلاء الحياة في اليمن السعيد.

أتوغل في عمق المشهد فأتربع على عرش ذاكرة المدن أو المسارح التي تشكل نبض الثقافة الحية، هنا تصدح أغاني أحمد الناجي وهو يشدو ويقرع

طبول الألحان وشذا حباله الصوتية تبث شجن مصبوغ بمشاعر مثالية كفجر الربيع، الفنان الموهوب صاحب اللَّمسات الفنية الساحرة والرقم الصعب في المسرح الغنائي الصومالي يتغزل بالسمراء المطلة على المحيط الهندي "مقديشو" ويتفنن في مدح ووصف العاصمة الصابرة الصامدة التي أبت الاستسلام والخنوع، بل بعد كل دمار وعنف ومجازر ترفع ذؤابتيها من جديد وتبث في نفسها عبر المباني العتيقة والمزارات الموغلة في سحيق الحضارة والمساجد روحَ التجلد.

أسرني الفنان بحبل صوته ونغمه الشذي وقادني وصف الثقافة الأصيلة إلى الموطن الأصلي لكل الصوماليين "الريف" وأحاديث الرعاة وزغاريد الأعراس والأمسيات الصومالية الخانقة بالبخور واللُّبان والشاي وتحكيم الناس وفق الوثيقة الصومالية القديمة "حِير" التي بعد أن دخل الإسلام الصومال أصبحت تقنينًا للشريعة في معظمها، والمجالس البدائية التي تتحول إلى مؤتمرات حقيقية تحلل الخيارات وتضع القرارات وترسم السياسات ويجتمع فيها أهل الحل والعقد وهم يفكرون ألف طريقة وطريقة من أجل الحروب أو المصالحة أو الشعر أو نقل أخبار السيول والجفاف.

على كتف الجمال ولونه القرمزي تعزف الشمس لحن الغروب وترتفع ثرثرة النسوان ومرح الأصدقاء على ضفاف الأدب والأمثال، الكل يراعي النجوم ويستظل السماء ودولة القوافي. السماء تعزف لحن المطر، وتضوعَ الأريجُ عن أحراش خط الاستواء والقرى الناعسة على حضن نهر "جُوبا" السخي بثروته الطبيعة وهديره في زمن الفيضانات، وفي عمق الجمال الشاعري تبدو الغابة الاستوائية والحقول الممتدة بامتداد الموز على خارطة الوطن والقرود التي تتقاذف على وقع موسيقى الطبيعة لوحة صومالية استوائية بارزة

المعالم. في وسط السرحان الجمالي يأفل القمر ويبدأ يراقب الكون عبر نافذة منزله، القمر يسمر وحيدًا ولا يحب الصخب والترحال عكس الصوماليين هواة التنقل والسمر على أهداب الشعر والقصص والميثولوجيا والحضارة الصومالية التي عمرها يزيد عن آلاف السنين حيث دلت الأحافير والأثريات على قدم الحضارة في بلاد بونت (الصومال) التي كوَّنت علاقة استراتيجية وتبادل تجاري مع الحضارات القديمة كالصينية والهندية، وإن وثقت الشواهد والخرائط القديمة وكتب الرحلات العلاقة الضاربة في جذور التاريخ بين مملكة بونت والمصريين القدامى، وخاصة عهد الملكة "حتسبشوت" الفرعون الخامس من الأسرة الثامنة عشرة حيث كانت الصومال تصدر إلى مصر القديمة الأبنوس والعاج والبخور والأحجار الكريمة المستخدمة للتحنيط والزينة.

ومنذ أن استوطن الأجداد في القرن الأفريقي ما زال الصومالي الحامل جينات الشجاعة والحماسة والحس الفكاهي يتنقل عبر الجغرافيا الصعبة ويقهر التضاريس وهو ينشد الماء والكلأ، ويخوض المعارك الساخنة حفاظًا على الشرف وذودًا للدين وصونًا للعرض أو قل إن شئت من أجل الدين، القبيلة، الموارد، المرأة، الخيول، الجمال. وكان الأجداد يواصلون الكفاح ويقارعون أبواب الشعوب القاطنة في المشرق الأفريقي بالإسلام وثقافة البداوة وتمجيد النسل الشريف على أساس تحقير ثقافة التمدُّن، وجوههم كانت غارقة بالسمرة والعبادة وكانوا يبيتون وهم اتخذوا من السيوف مأوى والتجلد مطعمًا.

المشهد الثاني:

ينتهي المشهد الخلاب على مشارف المشهد الثاني القاتم فتمنحني زرائب الأماني شريط الحاضر تحت قبة ليل صومالي كئيب، الوطن قاتم كأطياف

الدجى، والمدن تعاني من الكوارث والإهمال، يتحول المشهد إلى فيلم تراجيدي بائس كتراجيديا الموت في المسلسل الصومالي الساخن منذ ١٩٩١م، في الفيلم المباشر على هواء المعاناة يعرض المخرجون (تجَّار الصراعات ومافيا الحروب) أمَّةً ممزَّقة الأوصال اختارت التشرُّد وضياع الهوية والتشظِّي، وبلد جميل بتاريخه وتراثه وطبيعته تحوَّل إلى حلبة صراع مفتوحة لقوى الشر والحركات الإجرامية.

في داخلي المشحون بكراهية الحروب وكابوس الحركات المهووسة بالقتل وتشويه سمعة الإسلام يتصاعد صوت حزين يلهب الأحشاء بألم الذهول، القلوب تنزف الأسى والبيوت تشتاق إلى ساكنيها والمنافي الباردة تعاني من تدفق اللاجئين الصوماليين وسجون العرب تكتظ بهم وهم ينتظرون "الترحيل" بعد أن ارتووا من كأس العبودية والتسلط، والشوارع تحنّ إلى مزح الخلَّان، والمقاهي متدثرة بصوت الرصاص وسكب الدماء وسوط الحروب. أتعبني المنظر البشع وأرعبتني عدوانية الأبطال فحاولت الهرولة إلى مسارب الدروب وبقايا الحكايات الخازنة تفاصيل الواقع فكان هو الآخر كدمات تدمي القلوب بإيقاعات الموت وحبل المشانق والفساد. الثقافة تعاني نزيفًا حادًا وعمَّ التزوير وانتشرت عدوى البَلَادة والخطب الفارغة بعد اختلاس الأموال والسطو على الثروة يتبعها ضحكة صفراء مقياس ٧ سنتيمترات عرضًا و٩ درجات تدميرًا.

ينتهي المشهدان على وقع الأحاسيس المتناقضة وينتهي الفيلم وأنا أقرع أجراس الندم، وأحاطني اليأس من كل جانب حتى صلت إلى عتبة الإحباط، ولكن وفي عز الظلمة لاح ضوء في نهاية النفق ورأيت من بعيد شروق شمس الكرامة من جديد على أيدي أبناء الوطن الذين كرَّسوا جهدهم من أجل

انتشال الأمة من وكر الجريمة والفوضى إلى شواطئ الأمان ونحو حلم يعيدنا إلى الماضي الجميل ودولة تراعي الحقوق وتخرجنا من الذل والهوان إلى التطور والسلام المنشود منذ عقود.

٢١ أكتوبر ١٩٦٩م

بعد اغتيال الرئيس الصومالي الأسبق عبد الرشيد علي شرمأركي (١٩١٩- ١٩٦٩م)، في مدينة «لاسعانود» الواقعة شمال البلد على يد أحد حراسه، دخل الوطن فراغًا سلطويًا مفاجئًا كاد أن يعصف ويهدم مؤسسات الدولة الفتية، ويدخل الشعب الصومالي البدوي في متاهات العنف والحروب، وغياب الدولة التي كانوا ينتظرونها على أحرّ من الجمر. رحيل رأس الهرم في دولة ما زالت في طور البناء والتكوين، كانت فاجعة بكل المقاييس، فدعي إلى جلسة برلمانية طارئة لبحث تداعيات اغتيال الرئيس. عقدت الجلسة واحتدم النقاش داخل قبّة مجلس الشعب الذي اختار رئيسه شيخ مختار محمد حسين (١٩١٢- ٢٠١٢) رئيسًا مؤقتًا للبلاد، حاول البرلمان الوصول إلى صيغة تفاهمية ورؤية مشتركة حول الرئيس الجديد الذي يخلف شرمأركي، ولكن وبفعل تباين الآراء وتقاطع المصالح، أصبح الحل صعب المنال في ظل انقسام حاد، وعدم إيجاد مرشح توافقي للجهات المتصارعة سياسيا.

توالت اللقاءات وطالت الجلسات الفاشلة، وارتفع الصخب واللغط السياسي، ووصلت العملية السياسية إلى طريق مسدود، وبعد انسداد الأفق وفشل السياسيين الانتهازيين في معظمهم، والأحزاب القبلية في الوصول إلى حل ناجع يقود الوطن إلى برّ الأمان، قامت مجموعة من الضباط بقيادة الجنرال محمد سياد برّي (١٩١٩- ١٩٩٥) بانقلابا عسكري وصف بأنه كان أبيض، لم يُرَقْ فيه قطرة من الدم الصومالي.

في الصباح الباكر، وقبل أن يبزغ فجر يوم الثلاثاء ٢١ أكتوبر عام ١٩٦٩م، خرجت القوات المسلحة الصومالية من الثكنات العسكرية والمقار الرسمية لها، وانتشرت في أنحاء مقديشو وسيطرت على مفاصل المدينة والأماكن الحيوية للدولة، مثل البرلمان، وراديو مقديشو، إضافة إلى الشوارع الرئيسة للمدينة، وأعلنت ولادة الثورة الصومالية المجيدة حسب أدبيات العسكر، ولكن وحسب الدستور والتاريخ فقد كان مجرد انقلاب عسكري كان سائدًا في حينها أجزاء واسعة من أفريقيا والعالم العربي، فلكي تحقق الثورة أهدافها يجب أن تلبي مطالب الشعب وتحت قيادة مدنية ترسخ قيم العدالة الاجتماعية وتداول السلطة والتحرر من الاستبداد إضافة إلى تحسين مستوى المعيشة، بينما كانت قادة أكتوبر من الضباط وجنرالات الجيش الذين جعلوا هذا اليوم من أكثر الأيام احتفالًا وتكريمًا، حيث فاقت وخطفت الأضواء عن المناسبات الوطنية مثل ٢٦ يونيو يوم استقلال شمال الصومال، والأول من يوليو حيث نال الجنوب استقلاله، وتوحيد الشطرين الجنوبي والشمالي تحت اسم جمهورية الصومال.

لم يكن انقلابًا عسكريًّا صعبًا ولم يواجه الجيش أية مقاومة تذكر، بل كانت الأمور أسهل بكثير مما في مخيلة الجنود ومهندسي الانقلاب، حيث الخصم

السياسي كان غارقًا في الخلافات العبثية وأوحال الفساد والإقصاء السياسي، مما جعلهم في أضعف حالاتهم، إضافة إلى سمعة الجيش الصومالي التي مهدت له الطريق وجعلته بديلًا مناسبًا في عين الشعب، وبعد أن تم الانقلاب وانقاد الجميع للثورة الجديدة التي لامس خطابها الأول شغافَ قلوب المجتمع الظامئ إلى دولة حقيقية، عقد الضباط جلسة لاختيار الرئيس وقائد الثورة، ورغم الانقلاب والديكتاتورية العسكرية، إلا أن قادة الانقلاب قاموا بعملية ديمقراطية نزيهة، واختاروا اللواء محمد سياد بري- قائد القوات المسلحة الصومالية - رئيسًا للدولة ورئيسًا للمجلس الأعلى للثورة.

وبعد الانتخابات الداخلية فيما بينهم، أصدر المجلس الأعلى للثورة قرارات صارمة من بينها حل المحكمة العليا والبرلمان وتعليق الدستور، وحظر التجمعات الحزبية والتكتلات السياسية، واعتقل كثير من أعضاء الحكومة الديمقراطية، ووجهتِ الثورة الشعب نحو مشروعها القومي، وما أغرى الشعب وضاعف تعلقه على الكيان الجديد هو العزف المقصود على الأوتار الحساسة، وبث روح الحماسة عبر أغاني تلهب الأحشاء، خاصة وأن المجتمع كان يعاني من ضياع الهوية وفقدان البوصلة، وضبابية المستقبل، مما حول حياتهم إلى مشاحنات حزبية ومهاترات سياسية، أو هرطقات قبلية بدل التنمية ورسم سياسة رشيدة.

لم تنتظر قادة الثورة المساعدات الخارجية وكسب ودّ المجتمع الدولي، بل باشر المجلس الأعلى للثورة كل الأعمال بجهود ذاتية، وقام بتوجيه الشعب نحو توحيد الوجدان، والاكتفاء والبناء والتطور العمراني، والتعافي الاقتصادي، ومحو الأمية ومحاربة التمييز العنصري والقبلي، فغرزت الثورة في قلوب المواطنين حب الوطن والتفاني من أجله، فبنى الشعب عبر المشروع

الشهير "اعتمد على نفسك" المشافي والشوارع والمصانع، وجعلت التعليم مجانيًا من الأساس إلى المرحلة الجامعية، وأسست الثورة جيشًا صوماليًا قويًّا يهابه الجميع، وارتفعت التطلعات ووصل منحنى الأحلام إلى أوج عزه، واعتمدت السياسة الخارجية الجريئة، والاستقلالية والمشاركة الفعالة في الهيئات الأممية والمنظمات القطرية، فبدلا من السياسة الانطوائية والمشاحنات الداخلية التي كبلت قدرات الحكومات المدنية السابقة، رفعت الثورة في بدايتها شعارات براقة مثل الإصلاح الاقتصادي وصوملة المنشآت وتأميمها، والاستقلال الفعلي وحرية القرارات، والخطوات الجادة نحو صومال جديد.

وأعلنت الثورة محاربة الترويكا المخيفة في حياة الشعب (الفساد، الجهل ، القبلية) التي كانت حجر عثرة أمام تقدم الحكومات في السنوات التسعة الماضية، وانحازت الثورة للشعب الصومالي وقضاياه العادلة التي أولها توحيد الصومال من جديد، واستعادة الأراضي التابعة للدول الأفريقية، أوغادين في إثيوبيا، والمقاطعة الحدودية الشمالية (أنفدي) في كينيا، وجيبوتي الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي، وتحجيم الأطماع الكبيرة لدول الجوار، مما جعل الثورة في بدايتها عملًا بطوليًا وتحقيقًا للمطالب الشعبية والأحلام المشروعة لأمة أرادت الامبريالية تقسيمها وتقطيع أوصالها، كما ناصرت الثورة الشعوب الأفريقية المحتلة. وفي سابقة أولى من نوعها، أصبحت الصومال دولة يُطلَب ودّها بعدما رفعت الثورة اسم الوطن في المحافل العالمية، وباتت رقمًا صعبًا في المعادلات الدولية بموقعها الاستراتيجي المطل على المحيط الهندي وخليج عدن، والمتحكم في باب المندب والتجارة العالمية، إضافة إلى الأراضي الخصبة والمعادن التي لم تكتشف بعد. وفي غضون سنوات قليلة، أصبحت الصومال الحليف الأقرب للاتحاد السوفيتي في المنطقة، كما احتفظت باهتمام المعسكر الغربي بقيادة أمريكا، وانضمت لمنظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٧٠م والجامعة

العربية عام ١٩٧٤م، كما استضافت في نفس السنة قمّة منظمة الوحدة الأفريقية.

ومن الخطوات المؤثرة التي نالت استحسان الشعب، كانت كتابة اللغة الصومالية وفرضها في مكاتب الدولة التي كانت تعاني من فوضى لغوية رهيبة، حيث كانت الإيطالية تتحكم في الجنوب والإنجليزية تسيطر على الشمال، إضافة إلى العربية التي كانت اللغة السائدة بعد الصومالية، وفي خطوة اعتبرها البعض أنها تغريب للصومال وإبعاد عن محيطه العربي والحضاري، أُختير الحرف اللاتيني لكتابة اللغة الصومالية التي كانت قبل ١٩٧٢م لغة شفوية، رغم وجود محاولات خجولة لكتابتها بالحرف العربي.

وفي غضون سنوات قليلة باتت ثورة ٢١ أكتوبر من أكثر الثورات الأفريقية والعربية إثارة وزخمًا، سواء من الناحية الإعلامية أو من الناحية الجيوسياسية، وتأثيرها على المحيطين الأفريقي والعربي، والتحالفات الدولية التي كانت تحكم العالم آنذاك (الناتو، وارسو)، وبعد السيطرة التامة لمفاصل الحكم والاستتباب الأمني والتأميم الاقتصادي، والخطاب الإثاري اللاهب للقادة، ارتفع ترمومتر الوطنية، وتخطت الصومال في السنوات العشر الأولى من عمر الثورة كل الحواجز، وتغلبت على المشاكل التقليدية، وأصبحت دولة حديثة تواكب العالم وتصدر منتجاتها إلى الخارج.

وبعد أن رسخت الثورة أقدامها في التربة السياسية وسيطرت على الجمهورية الصومالية الوليدة كانت ملامح القضايا الساخنة تتشكل وبدأت تتضح وتتسرب إلى الخارج وإن كانت بعض المرات تتستر في لباقةٍ سياسية مبنية على الوحدة الأفريقية الذي كان الرئيس محمد سياد بري ينادي بها ويتبناها. ولعل خطبة الرئيس الشهيرة في ١ تموز أيلول عام ١٩٧١م تلخص

أجنداتها وما يعتري في خيال زعيم ثوري وصل إلى ذروة النشوة العسكرية حتى بات أسد المنطقة ورئيسها الوحيد: "البلاد الصومالية التي يسيطر عليها الدول المجاورة (إثيوبيا، كينيا) أقول؛ فكرتنا هي أن تلتقي الدول ويجتمع رؤساؤها لحل المشاكل التي صنعها الاستعمار كي تفرق بين الإخوة وتخلق مشاكل بيننا من أجل السيطرة والسطو التام على الدول، يجب أن نفهم مخططات العدو وأن نتشاور ونتحاور وأن نعرف مصالحنا ونحلّ مشاكلنا بطريقة صادقة وبعيدة عن الصراعات والاحتكاكات. في العالم لكل قومية أو لكل دولة لها قادة ورؤساء، فإنْ قادت الزعماءُ الشعوبَ إلى طريق صحيح تترك اسمًا خالدًا وصفحات مشرقة، وإن قادوا الجموع نحو الهاوية لا يذكر اسمهم إلا ويكون مقرونًا بالسب والشتم والدعاء عليهم، ويقول الشعب لماذا قادونا إلى المهالك والويلات؟

أقول كتب الله منذ الأزل أن نعيش نحن وإثيوبيا وكينيا في شرق أفريقيا، نحن اليوم نعيش في هذه المنطقة ولا شك أن الأجيال القادمة ستعيش في نفس هذه المنطقة، ولا يوجد من يستطيع محو هذه المسلّمات من الوجود، إذًا ماذا بوسعنا أن نفعل نحن رؤساء هذه الدول إثيوبيا، كينيا، الصومال؟ أنقود الأمم والشعوب إلى الهلاك والحروب؟ أم نتفاهم ونتحاور ونحل المعضلات بطريقة أخوية عادلة ونراعي حسن الجوار؟ في رأيي أن الحوار واتّباع الحق هو الطريق الأمثل لإيجاد حل جذري ودائم في القضايا المعقدة.

أما ما يتعلق بالصومال الفرنسي (جيبوتي حاليًا) فرأينا واضح ولا نرى أية مشكلة أن تتفاهم الشعوب القاطنة في جيبوتي أو الصومال الفرنسي وأن يتواصل التقارب والوحدة وأن تقبل الدولة الفرنسية أن يمارس هذا الشعب حقه ويصل قراره وأن يختار مصيره ويمنحهم الاستقلال. هذه رسالتي إلى

الدولة الفرنسية ونظرًا لتاريخ الدولة الفرنسية التي أعطت الاستقلال لمعظم الدول التي كانت تحتلها نطلب منها أن تعيد حرية هذا الشعب وأن تقبل أشواقهم وتسمح لهم تحقيق تطلعاتهم. حسب رأيي هذا هو القرار الأمثل وأفضل سياسة تقود هذه الملفات الحساسة" كانت خطبة دبلوماسية سلطت الأضواء على طموحات الرئيس والسياسة الخارجية لدولة العسكر، كما أرسلت عدة رسائل إلى دول الجوار وفرنسا الاستعمارية، مما وطد تعاونهم وتآزرهم لدرجة أن يوقعوا اتفاقية دفاع مشترك.

وبعد عقود كان العسكر يقود فيها دفة الدولة دخلت الثورة المسار الأسود والأسوأ على الإطلاق، حيث سيطرت الأجنحة المتشاكسة على مفاصل الدولة وانتهجت أسلوب الإقصاء والتهميش وعمت الحروب وانهار الاقتصاد وساد الفساد وانتشرت المحسوبية، وأصبحت السياسة القمعية والترهيب هي المتبعة لدى دوائر الدولة الرسمية وأذرعها البوليسية، وبدأت القبائل تؤسس جبهاتها القتالية وحركاتها المسلحة التي كان هدفها إسقاط النظام وإسدال الستار لعقدين من الزمن كانت الصومال في بدايته من أقوى الدول الأفريقية سياسيًّا وعسكريًّا، وفي نهايته وبعد انحراف مسارها سقطت الثورة ومعها الوطن في مستنقع آسن لم يستطع أن يخرج منه إلى يومنا هذا.

في هذه المرة لم يكن لدى الحكومة وعودٌ ولا مبادرات جديدة تقدمها للشعب، وفقدت الثورة بريقها وأفلست سياسيًّا وعسكريًّا بعد الضعف والإحباط اللذيْن خيّما على البلاد حكومةً وشعبًا بعد العودة من حرب أوغادين (١٩٧٧م) والهزيمة العنيفة والمفاجئة،، لقد رجعنا من الحرب منهزمين عسكريًّا ومحبطين نفسيًّا، كما كنا مفلسين اقتصاديًّا، وجدار الهيبة قد تهدم وانكشفت سوءة القيادة واستبدادها المتستر وراء قناع الوطنية والخطب

الرنانة وتجييش الناس وتأليبهم نحو القضايا الحساسة والأوتار المحركة، وصارت مؤسسات الدولة تعاني من التيه والضياع ورسم سياسات بهلوانية لا ترتكز على أسس علمية ولا نظريات صحيحة، بل على مزاج قادة عديمي الكفاءة والقدرات الإدارية والسياسية، وزعزعة ثقة الجيش المؤسسة الوحيدة التي كانت سليمة في نظر المجتمع، وبعد محاولة الانقلاب الفاشل والمعارك الشرسة للحركات المتمردة في طول البلاد وعرضها تدهور كل شيء سريعًا نحو الهاوية ونحو مستنقع الحرب الأهلية.

وبعد خمسة عقود تغيرت الأوضاع وتبدلت المعالم ما زال الشعب مقسّمًا حول أكتوبر التي ملئت الساحة الصومالية وشغلت الشعب ووجهت السياسة العامة وملامح الحكم، ورغم ذلك قليل من يكتب وينظر إليها بعين الإنصاف البعيدة عن الانبهار والمحاباة وكذلك عن عين الحقد والحسد والقبلية. ولكن ورغم كل ما قلنا وقيل في حقها من الحقيقة التي لا يستطيع أن ينكرها أحد فإنها حققت إنجازات ملموسة وقامت بأعمال جليلة لم تقم بها أي دولة صومالية سابقة ولا لاحقة، بل قرعنا أجراس الندم والحنين إلى زمن الديكتاتورية.

الحنين إلى زمن الديكتاتورية

عاش الشعب الصومالي تحت حذاء العسكر وسوطهم ما يربو على ٢١ عامًا، كانت المصادرة والرأي الواحد يسيطران على الحياة، ورغم أن الصومال في تلك الحقبة كانت تعيش في أزهى عصورها قوة واقتصادًا، إلا أنها كانت قوة هشة من الداخل ولا تعتمد على أسس متينة، والشعب كان في معظمه يعاني أزمة من نوع آخر وهي أزمة الحرية وعدم المشاركة الفعالة لرسم مسار الوطن والتعبير عن الرأي والتعددية السياسية؛ حيث كان المجتمع يعيش تحت رهبة الخوف والمشانق، ولا يستطيع أن يمارس أبسط أنواع الحقوق والحريات إلا في ظل الهامش الضئيل المسموح له من قِبل أجهزة الدولة، بل كان ـ كعادة الجيش ـ مزاج الجنود وتصورات القادة هو الذي يقود الجميع عبر إثارة ثورية مليئة بالخطب الحماسية والتصريحات النارية والعزف المقصود على وتر المشاعر لشعب مرهف الإحساس مما جعل الشعب قنبلة موقوتة شديدة الانفجار قد تنفجر في أي لحظة.

ورغم هيبة الدولة والحكم البوليسي والقبضة الحديدية والسياسة العنيفة المتبعة لديها لم تستطع دولة العسكر أن تصمد أمام الواقع المأزوم وضربات الحركات المسلحة والقبائل التي كانت مدعومة من قِبل الدول المجاورة. وبعد عقدين من الاستبداد العسكري الذي قاد الجموع المسلمة نحو النظريات الغربية ومبادئ الشيوعية والتبني الساذج لآراء الاشتراكية، زادت المعاناة ووصل الكبت وكتم الأنفاس وحرمان الرأي الآخر والاعتقال السياسي والسجن التعسفي إلى أعلى مستوياته؛ مما أثار الرأي العام المحلي وعجل بانهيار الحكومة المركزية العسكرية على وقع مدافع مصحوبة بزغاريد القبائل أو على الأقل وسط حالة من الارتياح والمباركة على إسقاط النظام العسكري.

ولكن عندما ذهبت السكرة وبقيت الحسرة والحقيقة المؤلمة أيقن الشعب الصومالي بشتى قبائله وكياناته وأحزابه وحركاته أن الواقع أعنف من الاضطهاد الذي كان العسكر يمارسونه ضدهم، وبدأ الشعب يسكب دموع الندم ويقرع أجراس الحنين إلى زمن الديكتاتورية العسكرية التي وإن كانت متسلطة إلا أنها كانت تراعي المصلحة العامة وتحفظ الحدود وتصون الكرامة الصومالية أمام القوى الخارجية والعدو التقليدي الذي كان وما يزال يريد ابتلاع الصومال.

الجبهات التي سيطرت على مقاليد الحكم بعد أن هرب قائد ثورة أكتوبر ورئيس الصومال محمد سياد بري إلى منفاه (نيجيريا) لم تكن بديلًا مناسبًا أبدًا، ولم تكن تهدف إلى حكم الصومال وقيادة دولة ـ ورغم ترنحها أمام ضربات المتمردين ـ كانت مؤثرة في محيطها الأفريقي والعربي، بل كانت الجبهات المسلحة والقبائل المعارضة تحركها دوافع الانتقام وشهوة السلطة وشبق المال العام والسيطرة المطلقة على مقاليد الأمور دون أن تؤدي هذه العوامل إلى ملء

فمهم أو إلى فكر سياسي ناضج وقيادة سفينة الصومال نحو الدولة الآمنة والرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسي ونحو التطلع إلى التقدم والازدهار. كان همّ سماسرة الدماء وقادة العنف والكراهية نهب الثروات وتمزيق الجغرافيا، والبصق في وجه التاريخ، والهروب الجماعي من المسؤولية، والتسول على أعتاب الذل والمهانة، واغتيال الآمال وتخدير العقول باسم القبيلة تارة والمال الفاسد تارة أخرى.

وفي فترة وجيزة بعد سقوط الحكومة العسكرية تقاتلت الجبهات على أنقاض الوطن وبدأت موجة عارمة من الانتقام والتصفية وعمت الحروب الصومال وأغرقت موجاتُ التشريد دولَ الجوار، بل وصلت إلى أبعد القارات وأقصى الحدود وأصبح الإنسان الصومالي ذليلًا خائفًا فقيرًا لا يجد دولة تحميه ولا نظامًا يذود عن عرضه وأصبحت البلاد مستباحة، الحدود مفتوحة لقوى الشر ومن هبّ ودبّ، ونشطت المخابرات الدولية في المسرح الصومالي الذي تحوّل إلى حلبة صراع وأمسكت الدول المجاورة بزمام المبادرة، ودخلت الأمة منحدرًا خطيرًا نحو الهاوية ومستنقعات الحروب الأهلية الطاحنة، وتفرق الناس وتقاتلت الجموع وسالت الدماء على الطرقات وفي البيوت وعلى صفحة الوطن، وهاج الناس وماجوا ودخلوا في سراديب القتل وهربوا من تربة البلد إلى صقيع الغرب وصحراء الشرق ومتاهات الغربة القاتلة.

هرج ومرج وجنون نحو لعق الدم ومصه! القاتل لا يدري لماذا يقتل أخاه، والقتيل لا يعرف فيم قُتِل! استبيحت الحرمات واختفى الوازع ولوثت المليشيات المسلحة شرف الأمة وعزة القومية الصومالية. وقعت مآسٍ ومحن يشيب لهولها مفارق الولدان، أُسَرٌ بكاملها التهمتها المدافع ونهشتها الصواريخ، ومدارس هدمت على رؤوس الطلاب، ومساجد أصبحت ضحية

للخراب، وأسواق أحرقت ونهبت، ومات في جوف اللهب والألسنة المتصاعدة مئات من المواطنين الذين لا ذنب لهم سوى أن القدر حشرهم إلى هذه النقطة والسوق الذي لم ينج من روادها إلا النزر القليل. وفي خضم عنفوان السباق نحو الدمار والدموع بدأ مسلسل نقض غزل الكرامة، وواصل الصوماليون الدوران في المربع العبثي وبحماسة منقطعة النظير، طال الزمن وتخطينا كل الحواجز نحو إراقة الدماء والتغريد خارج السرب الدولي والخنوع نحو المجاعة والقرصنة وأصبحت "صوملة" تعني الفقر والإرهاب والفساد وأمراء الحرب وتجار المعاناة.

تباعد الشعب ونتج عن القتال والمعارك الداخلية التي لا يهدأ أوارها ملايين القتلى والمشردين، وقصص رهيبة تؤرِّخ وحشيةً وانسلاخًا تامًّا من الآدمية، وطوابير طويلة أمام هيئات الإغاثة والمنظمات العالمية لعل المرء يجد ما يسد رمقه وما يقتات به ولو كانت ممزوجة بالذل والهوان تارة وبتغيير المعتقدات ودس سم التنصير وعلقم التبشير تارة أخرى. بلغ السيل الزبى ولم يحتمل الشعب الذي أصبح واعيًا لما يدور حوله ما يجري في الوطن فكوّن ـ في لحظة من الإفاقة النادرة ـ أفرادًا مسلحة تحولت فيما بعد إلى حركات إسلامية يجمعها التوجه الإسلامي، ولأول مرة خاض الشعب وبقيادة إسلامية أصبحت في الصدارة – في سابقة أولى من نوعها- حربًا مريرة ضد أثرياء الحرب ومافيا الصراعات، في بداية المعارك الفاصلة في شوارع وأحياء مقديشو لم يكن في بال العالم وحتى في خاطر الشعب الثائر أن ينهزم أمراء الحرب بهذه السرعة القياسية أمام شعب كبلته الحروب وقسمته القبلية والسياسية، ولكن:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

وبعد معارك طاحنة في مقديشو تحرر الشعب من وكر سماسرة الدماء ودخل في فترة تعتبر أنها كانت من أجمل الحقب التي مرت على الشعب الصومالي حيث عم الأمان وتطلعت الأمة نحو النهوض والوحدة ونحو دولة صومالية قوية، ولكن الدول الراعية لمعاناة الصومال وممن طبقوا علينا نظرية الفوضى الخلاقة لم يَرُقْ لهم الوضع المستتب والاستقرار النسبي فوأدوا التجربة الوليدة قبل أن ترى النور. وبعد تلاشي الحلم الجميل دخل الشعب موجة جديدة من العنف والدماء والتيه، اعتبرها البعض أنها كانت أعنف وأنكى من سابقاتها حيث دخل العنصر الديني في الصراع الصومالي المحتدم، وتصدعت الحركات الإسلامية واختلفوا في تقسيم كعكة السلطة بعد أن أصبح شيخ شريف شيخ أحمد رئيسًا انتقاليًا للصومال، مما أدى إلى اشتداد وطأة الحروب وارتفاع منحنى التشظي إلى أوج عزه.

وصل الجميع إلى طريق مسدود مرة أخرى واتسع الشرخ بين الإخوة الأعداء (الإسلاميين) ودخل الوطن في مطبات خطيرة هددت النسيج الاجتماعي الرخو أصلًا وكادت أن تطفئ شعلة الحلم الجريح، وبعد حملات انتخابية شرسة نافس فيها العديد من الوجوه المعروفة والشخصيات الجديدة في الخريطة السياسية الصومالية انتخب البرلمان الصومالي وجهًا جديدًا جاء من خلفية مغايرة لما ألفنا، ولأول مرة أصبح الرئيس الصومالي أكاديميًا يسعى إلى فرض الأمن وبسط هيبة الدولة والتغيير ودولة القانون والانتعاش الاقتصادي حسب الدعاية الإعلانية لبرنامجه الانتخابي، إضافة إلى كونه ممن عاشوا في معمعة الحرب منذ ١٩٩١م مما دغدغ مشاعر الملايين، ولكن وبعد توليه منصب الحكم أجهض الحلم الذي لاح في الأفق وأصبح نسخة مطابقة

للأصل بل تفشي الخوف وأصبحت الاختراقات الأمنية سمة بارزة في فترته ونخر سوس الفساد والمحسوبية في أجهزة الدولة وتباعدت الهوّة بين الصوماليين؛ مما أدى من جديد إلى حنين وشوق عارم إلى زمن الديكتاتورية العسكرية.

أوغادين.. مأساة متجددة

كنت أبثّ أشجاني من تخوم مدينة "غودي" عروس نهر شبيلي وأنا أمرّ عبر الخيال خارطة وطني الكبير. في ضاحية شاحبة من ضواحي المدينة الزراعية كان الصمت الرهيب يتحول وكأنه صدى الحروب. مرّ أمامي شريط مفعم بتكلس العقول وتحجر الأفئدة، مشاهد مروعة ومن شدة تكرارها باتت عادية في نظر الجميع "تصور حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجري فينا" والجملة الأخيرة للكاتب المسرحي السوري ممدوح عدوان (١٩٤١ - ٢٠٠٤) ووردت في كتابه «حيونة الإنسان» وفي الكتاب تساؤلات وتنبؤات واستشراف عبقري للمستقبل وما سيحدث في بلاده سوريا وبلدان أخرى عربية بعد ربيع - اجتاح العرب - وأجهضته الأطراف المتصارعة على العروش.

هنا ابتسامات خجولة تقهرها الكآبة، وهناك شهقات القتلى وأصوات الرصاص وبكاء الأيتام، وفي الأزقة المطلّة على المحيط ألحان صومالية تتعالى من أكشاش بائعات القات، ومقاهي تقدم الشاي المعبق بالقرنفل وحكايات

مخضبة بالدماء! وهدير التوكتوك وسائق يقف على بعد أمتار من الشارع ينتظر زبونًا وربما رصاصة طائشة من عسكري أفريقي ترديه قتيلا، قوات بعثة الاتحاد الأفريقي في الصومال أميصوم (African Union Mission in Somalia AMISOM) المقدرة بحدود عشرين ألف جندي جاءت من أقاصي القارة لحفظ الأمن ونشر السلام وبعد عقد ونيف (تم إنشاء البعثة من قبل مجلس السلم والأمن الأفريقي ١٩ يناير ٢٠٠٧م) لم ينشروا الأمل، ولم يغرسوا الأمن ولم يحافظوا على السلام، بل أصبحوا جزءًا من مشكلتنا يذكون نار الفتنة ويدعمون الجهات المتحاربة، ويتقاضون رواتب فلكية في محاجرهم المحصنة وثكناتهم العسكرية حتى انتفخت أكراشهم وتمددت أبدانهم وتضخمت أرصدتهم البنكية!

طفقتُ أراقب وضع أمتي التي تعمقت في غيّ التشرذم، واستسلمتْ للخوف والتخلف والاستعمار، الأخبار الجيدة نادرا ما يسمع عن وطن اشتهر بالمعاناة الإنسانية ولا ينتج سوى الألم والفقر، وبصيص أمل في غد قد يكون الأفضل وقد لا يكون، من يدري؟، ومواطنوه – رغم ماضيهم وجمال وطنهم – لا يحملون سوى همّ الترحال والهروب بعيدا عنه، نظرية المؤامرة تجعل الصومالي غارقًا في الرعب وتفسير الأحداث بسوداوية مخيفة، والأيام الصعبة التي عاشها في كنف الظلم وسادية القوى العالمية والاندماج القسري للمجتمعات الأفريقية المختلفة عنه تركت في ذهنه ذكريات مؤلمة ونبرة حزن على حكاياته ومخيلته.

ذوبان مخيف في القبائل والأعراق المختلفة دمًا وعقيدة تحدث في الإقليم الصومالي في "كينيا" التي تحاول بشتى الطرق إيجاد نصيبها من الكعكعة الصومالية والاستيلاء على أراضي لم تجد من يحميها ويضحي في سبيلها بالمهج والأرواح، وهذا أعلى درجات الهوان، وانتهاكات حبشية رافقتنا منذ نكسة

عام ١٩٥٤م، وهناك في الشمال البعيد "جيبوتي" الغارقة بالفرانكفونية ومتنعمة بالاستقلال رغم الأحلام الحبشية القديمة الجديدة وسيطرة فرنسية مطلقة في بعض الأحيان، وشمال الصومال الذي يسبح عكس التيار ويحاول جاهدًا صناعة مستقبل جديد وبمقياس القبائل الصومالية بعيدا عن أمواج وطن ابتلعته الحروب وكبلته الصراعات دون جدوى، وتفجيرات دموية واغتيالات وحكومات فاشلة في جنوب بلدي مما يذبل أزهارًا في مقتبل العمر. في مقديشو "سرّة بلادي" الأجواء كئيبة وصوت الرصاص هو الفصل الحتمي لأتفه الأسباب، الفرقاء الصوماليون يبتسمون في الخفاء ويوزعون الموت في العلن مما أذهل العالم وجعله حائرًا حيال هذه الأزمة وهذا الصراع الذي لا ينتهي، وهذه الأمة التي تبيد بعضها بعضًا وتقتل أفرادها بوحشية! فغر العالم فاه بدهشة ويتساءل ما الذي يجري في هذا البلد؟ ولا يعرف أن الأناركية الريفية ضربت نسيج قبائلهم وكياناتهم السياسية، وأن الأمر ليس كما درسوا في بطون كتبهم ونظرياتهم الاجتماعية، ذلك أن معظم أفكار العالم حول الصومال تبدو وكأنها مثاليات أفلاطونية وأفكار رومانسية لا تمت للواقع بصلة.

كان الألم يسكنني ويطاردني ويُذهب النوم عن جفوني وأنا أتابع بصمت الإعلام الحبشي المنتشي بالفجر الجديد والاكتشافات التي تضع بلادهم في مصاف الدول المتقدمة المنتجة للذهب الأسود، والعقود المبرمة والاتفاقيات الموقعة لاستخراج ثروتي ونهب خيراتي، وإذلال شعبي، وأسمع أزيز الآلات ودبيب أقدام الجنود المتجهة صوب الآبار، وقعقعة الشاحنات وهي في طريقها نحو الحقول ومكامن الغاز الطبيعي! أتسكع على دروب الموت، وأموت من قلة المَرافق، وأتضور جوعًا فوق بحار من النفط وآبار من الماء وفي وسط ثروة حيوانية هائلة تقول الإحصائيات إنها الأكثر في المنطقة، وتقتلني بندقية

الإثيوبي ورصاصته الغادرة، وأعاني من حصار خانق وتخلف رهيب لا يوجد مثله في أكثر مناطق العالم بؤسًا وفاقة، وصناعة النفط المنتظرة تبيد ثروتي الحيوانية وتغتال التناسق البيئي، في حين أترابي الأبسينيين يولدون في المشافي المجهزة، ويتمتعون بطفولتهم وشبابهم، ويجربون ألوانًا من السعادة في حياتهم، ينامون ملء جفونهم ودولتهم ترعاهم وتحفظ حياتهم المقدسة، ويدرسون في أرقى المدارس والجامعات وذلك بثروتي وعائدات نفطي وغازي الطبيعي المنهوب إضافة إلى مجالي الجوي المزدحم على مدار اليوم. من أعطي الغريب القادم وراء الهضاب حق التصرف بمقدراتي؟ إنه سؤال محير استعصى على العقول والأفئدة! انهبوا الأموال واقتلوا الأولاد واغتالوا القيم والأخلاق ولعنة البسطاء تلاحقكم وتماحقكم وتعاقبكم وتسحق عروشكم وتعذب ضميركم وتفقدكم راحة البال وتبدد أحلامكم..

جرح عميق لا يندمل.. وأحلام قديمة تتجدد كل حين، وتصرف عدواني من العدو وهمجية كما ذكرها المناضل الكاتب إبراهيم عبدالله ماح كاتبي المفضل الذي ترك بصماته الواضحة على عقلي وروحي وإدراكي وتصوراتي، إذ كان يحمل عقلًا مستنيرًا وإخلاصًا منيرًا وقلمًا وطنيًا وعلمًا غزيرًا أهّله أن يكتب ويؤلف ويؤرخ للقضية المنسية ويُوصل صوت شعبه إلى منصات العالم ومجالس الحكم وأروقة السياسة والمراكز البحثية العالمية، لقد كان مَعْلمًا من معالم أوغادين ورمزًا وطنيًّا جمع المعرفة التي نهلها من أصولها وأنفة الكفاح، وقامة ثقافية قد لا تتكرر في المنظور القريب. لقد جاهد بقلمه وألجم أطماع "أباسينيا" وقهرهم بسطوره المحملة بيقين الحرية وتباريح الاستقلال، وظل ينافح ويدافع عن مقدساته ومقدرات أمته حتى أتاه اليقين من رب العالمين. لم تتوقف أحلام أباطرة أباسينيا التوسعية ومحاولاتهم الدؤوبة لابتلاع ما تبقى من الأراضي الصومالية والوصول إلى شواطئ المحيط الهندي وخليج وعدن

وباب المندب منذ سقوط "هرر" في أيدي الحبشة عام ١٨٨٧م، بل ظل هذا الحلم ثابتًا في خيالهم وأجنداتهم السياسية حتى تحقق لهم ما أرادوا عندما وصلوا إلى سواحل "مقديشو" والموانئ الصومالية عام ٢٠٠٦م بمساعدة بعض المرتزقة وأصحاب الأجندات المشبوهة وما أكثرهم في بلد ظل عاجزًا عن النهضة والتطور منذ أن حلت عليه النكبات عند بزوغ فجر الاحتلال الأوروبي في القرن التاسع عشر الميلادي.

حل الظلام وتعمق الجرح بعد أن منح الاحتلال الأوروبي أجمل بلاد الصومال وأكثرها ثروة إلى الاحتلال الإثيوبي كهدية، ولعمري كان إجحافًا بحق أمة فقدت من يناصرها ويقف إلى جانبها ويدافع عن حقها بعدما تكالب عليها الأعداء من كل فج عميق! ورغم صعوبة الوضع وشوكة العدو وتعاضده لم يستسلم الصوماليون ولم ينتظروا الآخر لتحرير بلادهم بل واصلوا الكفاح المسلح وسطروا أروع الملاحم وأجمل فصول البطولة فوق تربة وطنهم الغنية بثرواتها وتاريخها وبطولاتها وأفذاذها من العلماء والمجاهدين والأدباء الذين تصدروا للمعارك التحررية والمشاهد والمجالس الثقافية والأدبية وساحات الوغى، واقتربوا مرارًا من معانقة المجد وتحرير بلادهم من ربقة الأمهرا لولا المد الأحمر السوفيتي وكتائب كاسترو ورفاقه الذين نسجوا أكبر أكذوبة في التاريخ عندما نشروا عبر أذرعهم الإعلامية وأبواقهم الثقافية مناصرتهم للمسحوقين ومقاومتهم ضد الإمبريالية العالمية بقيادة الرأسمالية الغربية وسعيهم الدؤوب نحو الانعتاق من أغلال الحضارة الغربية إلى آفاق الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وفي صميمهم دمويون يبيعون يوتوبيا الاشتراكية ووهم الحرية والتوزيع العادل للثروة والسلطة على البسطاء، ويسعون نحو استعباد الأمم عبر الأساليب الاشتراكية وهرطقة

ستالين وهراء ماركس، ونعومة الصين وملامح جيفارا الحنونة وابتسامة فيدل الدافئة، وكلها أقنعة تستر فاشية شيوعية مميتة.

منذ حرب أوغادين ١٩٧٧م كان الاحتلال الأحمر من السوفييت وكوبا وأعوانهم من الشرق والغرب ينشرون فلسفة الهزيمة والاستسلام التام "لأمر الواقع" وقبول العبودية وفرض أيديولوجية الانبطاح، ورغم خطبهم وكلماتهم الرنانة كالتي قالها كارل ماركس مؤسس النظرية الماركسية (الاشتراكية العلمية) "ما دامت الظروف هي التي تصنع الإنسان فيجب أن نصنع ظروفًا إنسانية" إلا أن إرثه الثقيل لم يصنع ظروفًا إنسانية في معظم أقطار الأرض وخاصة الصومال الغربي التي صنعوا فيها الظلم والعبودية وساندوا الاحتلال وزرعوا الخوف في المجتمع وهي الإنتاج الوحيد للاشتراكية في كل مكان، ورغم أن ماركس مات قبل هذه الفترة بقرن إلا أن أحفاده ومن أخذوا الأفكار والممارسات السياسية والاقتصادية والتوجهات الاجتماعية من مشكاته ظلوا يناصرون اضطهاد الأبرياء وقتل البسطاء بدم بارد. كانوا يحاربون على القيم والثوابت الإنسانية والعدالة، ويرفضون الاختلاف والحرية، وما يجري حاليا في تركستان الشرقية خير دليل على الممارسة العنصرية لأحفاد أفكار هذا الرجل، حيث الحكومة الصينية الشيوعية أعدمت آلاف الأبرياء من الأقلية المسلمة (الإيغور) وزُجّ ملايين في السجون وحرم منهم أبسط أنواع الحقوق كممارسة العبادة والحياة الكريمة، بل يقبعون الآن في الملاجئ ويتعرضون للإذلال وغسيل الأدمغة وذوبان ثقافي رهيب.

في خطبهم الإنشائية كانوا يتشدقون أنهم يناضلون من أجل إنسان لا يخضع للعبودية والحرمان ومن أجل توفير العمل والخبز والحرية، وفي أعماقهم إمبرياليون يحلمون إخضاع العالم بالقوة أو عبر الأساليب الملتوية ومد الحكم

"الأحمر" إلى أبعد الحدود، وهم في ذلك مثل الحضارة الغربية المادية التي تقدس المال والسلطة وترتكب من أجلهما الحماقات وأسوأ المجازر والمذابح، لذا فالماركسية والرأسمالية في معظم أقطار العالم وجهان لعملة واحدة. وقصارى القول الفلسفة الماركسية رغم أنها كانت في بدايتها وطيلة القرن الثامن عشر والتاسع عشر تدغدغ مشاعر الكادحين وممن طحنتهم الفلسفة الرأسمالية المتوحشة نظريًا إلا أنها عمليًّا كانت أفكارًا رومانسية غير قابلة للتطبيق وفشلت في جميع أصقاع الأرض حتى في الاتحاد السوفيتي وكوبا والصين وكوريا الشمالية وڤيتنام، وفي نظرنا كانت فلسفة غربية أوروبية استعمارية ومسيحية أيضا في القرن الأفريقي.

واستنادًا على هذه الأفكار الاستعمارية ظلت الأطماع الإثيوبية التوسعية راسخة في المفهوم السياسي الإثيوبي منذ عقود حيث روى التاريخ أن إثيوبيا كانت تشترط على الحركات المسلحة الصومالية المناوئة للحكومة العسكرية بقيادة الرئيس الراحل محمد سياد بري توحيد الصومال وإثيوبيا أو ابتلاع الصومال مقابل تسليحهم وتدعيمهم سياسيًّا وعسكريًّا. لقد ظلوا ثابتين في مبادئهم وأهدافهم ورغم تغير العالم وتفكك التحالفات وسقوط الأنظمة السياسية ونشر الوعي والمعرفة في المجتمعات فإن سياستهم لن تتغير من هيلاسيلاسي إلى هيلا مريم ومن زينازى إلى النظام الإثيوبي الجديد بقيادة أحمد الأورومي، وليست من قبيل الصدفة الكلمة الشائعة في أوساط الشعب والسياسيين الإثيوبيين " كيف يملك ١٠ مليون نسمة أطول ساحل في أفريقيا، و١٠٠مليون نسمة يعيشون في دولة حبيسة يختنقها الفقر والزحمة". القادة الإثيوبيون يعتبرون جميع الأراضي الصومالية ملكًا لهم وهذه سياسة قديمة جديدة، وما خريطة وزارة خارجيتهم عنا ببعيد.

لقد خاض الصوماليون كفاحًا يعتبر من أطول الكفاحات المسلحة في أفريقيا، وحاربوا من أجل الدفاع عن وطنهم ومبادئهم أمام الزحف الصليبي القادم من الهضاب الحبشية، وقد ارتفعت وتيرة المقاومة ومقارعة نصارى مرة أخرى بعد الإمام أحمد جري الذي حشر الأحباش في شريط ضيق من أقاليم "أمهرا والتجراي"، والدراويش الذين لم يستكينوا أو يهادنوا بل واصلوا الطريق المرسوم من أجل البقاء والتشبث على حقوقهم وترابهم. ولكن ورغم ضراوة الصراع والأثمان الباهظة التي قدمها الصوماليون من أجل الحرية من إثيوبيا إلا أن جميع الحركات المسلحة فشلت في إجبارها بالقوة أو إقناعها بالسياسة والتفاوض معها بطريقة جدية وطرح القضايا الحساسة كالاستقلال والاستفتاء الشعبي وثروة الإقليم في طاولة المفاوضات، كل الحركات والفصائل المسلحة كانت تنتهي بصخرة إثيوبيا التي لا تعرف سوى لغة القتل والدمار وتنكيل الشعوب وطبعًا وراءها الغرب الصليبي الداعم لها والذي يمد لها المال والسلاح وتكريس تفوقها العسكري والاقتصادي على المنطقة.

ونَعْزِي هذا الفشل إلى أسباب خارجية وداخلية؛ خارجيًا أخفقت جميع الحركات في تدويل قضيتهم وطرحها على الملتقيات الدولية والمنصات العالمية بطريقة تليق بوطن تاريخي يرزح تحت الاحتلال ويعيش فيه أكثر من ٨ ملايين نسمة يعانون من الاضطهاد والتعذيب الجسدي والنفسي، وداخليا ومنذ زمن بعيد تخلى معظم الشعب الصومالي عن الدفاع عن قضيتهم وانغمسوا في مشاكلهم القبلية وصراعهم الأهلي، ونسوا النضال والمسؤولية الملقاة على عاتقهم وتقاعسوا عن الذود عن الحرمات والتراث، بل أصبحت الأنظمة السياسية في الصومال الكبير ضد الحركات التحررية بعد أن أصبحوا أداة طيِّعة في أيدي إثيوبيا التي قسمت الصومال إلى كيانات قبلية كل يدافع عن جمهوريته المجهرية ومصالحه الآنية، والبعض الآخر تفننوا في إيذاء الحركات

الوطنية المناهضة للحبشة لكون الحركات في نظرهم تحمل لافتات قبلية لا تتسع للجميع، وتعتبر هذه سردية ساذجة تحمل طابعًا صبيانيًّا لا يليق بأمة تسعى إلى النضال واستعادة الكرامة، وهذا الجدل برمته يعتبر واهنًا وعقيمًا ونوعًا من دفن الرؤوس في الرمال والهروب الجماعي عن القضية، وإلا كان هذا الطيف الواسع الذي يأبى مساعدة الحركات الوطنية بسبب أسمائهم يساند الحركات الإسلامية التي رفعت شعار الإسلام والوحدة الصومالية، بل ولافتات إسلامية عامة وشاملة، ولم تجد هي الأخرى منهم سوى الخذلان والتضييق عليهم والتنسيق الأمني والمخابراتي مع الأنظمة المتعاقبة على عرش الحبشة!

الصومال الغربي القطر الصومالي المنسي في بحور التغييب والتعتيم الإعلامي عن أنظار العالم وكاميرات القنوات منذ أن استولت عليه الحبشة بموجب المعاهدات الحبشية البريطانية عام ١٩٥٤م يمر اليوم بأكثر فترات تاريخه حلكة ودموية، بعد أن تضافرت عليه القوات المحلية والعالمية، وتحول إلى أدغال من الدماء وغابات موحشة تعف الوحوش الكاسرة ما يجري فيه من القتل والتعذيب والإهانة والتنكيل والتهجير والتجويع، وأصبح الشعب يعاني من أزمات حتى وصل إلى مرحلة بعيدة من معادات الدولة وجميع أشكال الأنظمة التي لم تنصفه يومًا ولم تستطع انتشاله من القهر وأوكار القتل. الأنظمة التوتولارية القمعية في تصرفاتها والشمولية في منهجها والديمقراطية في شعاراتها وخطابها تحترم القوي وتراعي حقوقه وتسحق الضعيف وتبدد آماله. في ظل الانفصال الوجداني والثقافي من النظام الحبشي الاحتلالي وعدم وجود بوادر حرية تبعدهم عن مستنقع التبعية ومصادرة الحقوق ونظام صومالي موحد يستوعب الطموحات ويحقق الآمال انحاز الشعب إلى محاربة جميع الأنظمة ومظاهر الدولة، فالدولة في مخيلتهم تعني تغيير التاريخ وطمس

الحضارة ونهب الثروات وتغيير الديموغرافيا، وبازدياد القهر والسادية الموحشة التي انتهجتها الأنظمة المتعاقبة على عرش "أباسينيا" يزداد النفور وتنشأ "الأناركية" ولو بصورة ريفية ترى الأنظمة استبدادًا وتسلطًا على رقاب العباد والبلاد، وهذا ما لمسوه من الحكومة الإثيوبية التي لم يعترفوا بها يوما.

في عهد عبد إيلي (٢٠٠٩ – ٢٠١٨م) آخر ممثل للحكم الوياني (Woyane) في الصومالي الغربي كان الإقليم مأوى لإرهاب الدولة والإبادات الجماعية وأصبح القتل الجماعي وإزهاق الأرواح البريئة وحرق القرى بما فيها عادة يقوم بها الجيش الحبشي والمتعاونين معه من الصوماليين المرتزقة طيلة عقد كان الوطن يعاني فيه من الانتهاكات الصارخة على الكرامة والإنسانية. وما حدث في الإقليم يوم ٤ أغسطس ٢٠١٨م هو فصل من فصول القمع وإرهاب الدولة، وبعد المظاهرات ونهب الممتلكات أعطت الحكومة تعويضات هائلة لشعبها من القوميات الإثيوبية، أما الشعب الصومالي وبحكم أنه ليس إثيوبيا بل هو دخيل ومصدر المشاكل لم يجد التعويضات المستحقة، بل واجه صنوف التشريد والعقاب الجماعي في كل المدن الحدودية، ولم يجد دولة تحميه وتراعي حقوقه بل ظل صامتا يتألم ويواجه القمع بعزيمته الأبدية. وإذ كان الطاغية عبد إيلي رجل نظام التغراي البائد في الإقليم يقتل ويعذب ويغتصب ويحول بين الشعب وبين آماله، فالرئيس الجديد للإقليم وإن كان مثقفًا وناشطًا اجتماعيًّا يملك حسًّا قوميًّا فإنه لم يأت بانتخابات نزيهة ولم يتحرر الإقليم من قبضة الحبشة وإنما جاء تعيينًا من قبل النخبة الأورومية المسيطرة على الحكم في إثيوبيا التي تحاول وبشتى الطرق تغيير السياسة ونظام الحكم لتمكين أجنداتهم وتمديد حكمهم، ولا ننتظر منه فائدة تذكر فهو خادم مطيع للأجندات الحبشية.

يعذبني الواقع بوخزاته فأتهرب من القرن الذي أعيش فيه إلى قرون ماضية كانت الحياة أجمل والأحلام أنصع؛ فكريا أنتمي إلى بدايات القرن العشرين قرن الطموحات والتغيرات الجبارة وتحقيق الأحلام الكبيرة وصراع الأفكار، قرن التحدي والثورات ومصارعة التكتلات والأحلاف وتحقيق المطامع ونيل الحريات في أفريقيا واللاتين ودول آسيا الصفراء، إنني أعيش في قرن لا يشبهني ولا يثيرني بل لا يغريني، وأشعر بغربة شديدة، وأعتقد أنني ضللت طريقي نحو حياة قانعة ومستكينة ولا يوجد فيها لمسات القرن العشرين. من الصعب أن نعيش كل هذا الهوان والألم في القرن الحادي والعشرين وبعد نيل معظم شعوب العالم حريتهم ويمارسون الحياة بلا خوف.

أكتب الآن وأنا في بيتي وفي ركني المفضل في "كسمايو" وقلبي مع المضطهدين في الصومال الغربي وعقلي لا يستطيع استيعاب ما تبثه إحدى المحطات الصومالية، أشعر بغثيان ويغلي الدم في عروقي جراء ما يجري أمامي، حشود من المسؤولين والوجهاء وأعيان القبائل والمثقفين يتزاحمون على الكراسي الأمامية لمشاركة عيد القوميات الإثيوبية ويتسابقون على العلم الإثيوبي تعبيرًا لولائهم وتبعيتهم وطاعتهم للنظام الحبشي، والغريب أن كل هذا الخنوع والضعة تحدث في مدينة كانت رمزًا للمقاومة الصومالية والثغر الأمامي لنضال استمر قرونًا كان الحرب سجالًا بيننا، لقد ماتت النخوة الصومالية. ومن العجائب – والعجائب جمة – أن الصومالي الذي يلعق اليوم أحذية المحتل بلسانه يقتل أخاه الصومالي في نزاع قبلي والسيطرة على قرية مهجورة لا تظهر على الخارطة وليس لها قيمة تذكر. الحروب الأهلية، والعالم الذي أجبرنا على التشتت والتفرقة اغتالا القيم والمثل العليا فضعف قوة الإنسانية واليقين فينا.

وبعد كل ما ذكرنا لا نستطيع أن نؤمن المواثيق الأممية والمعاهدات الدولية حول الحقوق والحريات! هنا لا أحد يهتم بالإنسانية وقيمها كما قال منظر الواقعية الاشتراكية مكسيم غوركي ذات مرة بعد الحروب الأهلية الروسية وقتامة تأثيرها على النفوس البشرية والمسار الحضاري: "هل يمكن لأي شخص أن يؤمن بمعقولية الإنسانية بعد الحرب الأخيرة، مع حروب جديدة، محتومة، وأقسى، في المستقبل القريب؟ فعلًا الإنسانية في مأزق حقيقي بفعل قوى الشر!

التسابق الشرس للقوى المحلية والعالمية حول الإقليم والاهتمام الزائد الذي نراه اليوم ليس سوى بداية النهب، وسرقة ثروة الصومال الغربي تحت غطاءات متعددة ومسميات كثيرة رأيناها في أفريقيا وآسيا وكثير من البلدان النامية، وتنقيب شركة Poly-Gcl Petroleum Investment Limited الصينية آبار المنطقة والإجراءات المكثفة لاستخراج الغاز الطبيعي والنفط الخام يعتبر خطوة تكرس التجاوزات الإثيوبية في حق ثروة الإقليم المنهوبة، حيث تعاقدت إثيوبيا مع الشركات الأجنبية في ظل إبعاد تام لأصحاب الثروة الحقيقيين وتم تهميشهم وإقصاؤهم من العملية وكأن أحفاد منيليك يملكون حق التصرف وتبديد ثروات الشعوب وخيراتهم.

الإثيوبيون يحتفلون بداية إصدار الغاز في ظل الحالة الأمنية المتدهورة والمعيشية الصعبة، والشعب الصومالي يراقب ويترقب عن كثب. عزيزي القارئ لم يتبق لي سوى أن أقول حوض أوغادين يعتبر أكثر حوض رسوبي في المنطقة حيث تبلغ مساحته ٣٥٠ كم^{٢}، ويقدر العلماء وجود أكثر من ٦ تريليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي، ومنذ بداية تنقيبه في الستينيات من القرن العشرين كانت الحكومة الإثيوبية هي الطرف الوحيد التي تجري عملية الاكتشاف دون علم أهله.

بلاد بونت

كان المصريون القدامى والحضارة الإغريقية والرومانية القديمتان يطلقون على المناطق التي تسكنها القومية الصومالية في القرن الأفريقي أرض بونت أي: (بلاد البخور والعطور) وتعرف الآن حكومة الأقاليم الشمالية الشرقية من الصومال بحكومة بونتلاند. واخترت هذا الاسم لما يحمل من دلالات تاريخية وجغرافية وحضارية.

بغنائية فريدة كان الشوق يحدوني والذكريات ترسلني إلى أطياف الجمال وأنا أحلق فوق سماء مدينة "جَرُووي" التي استقبلتنا بدفء إيقاعها المعهود، بسبب الأجواء الصحراوية، والرياح الصيفية العاتية، لم يكن الهبوط سهلًا، بل اهتزت الطائرة وتراقصت وكأنها سمراء أفريقية تطرب وتشدو على وقع أغنية (Mory Kante Yeke Yeke) في ليل أفريقي خانق بالإيقاع والطرب. كانت القلوب تحتضنني قبل البيوت، وندى الشجن يتراقص في مخيلتي وأنا شارد مع التراث، أجواء البساطة في القرى الصومالية والطرقات المبللة

بالتقاليد تعاود حنين الماضي وتجعل تلك المدن نقطة مضيئة في وسط عتمة مدننا الغارقة في الحروب العبثية والخوف الدائم من القادم المجهول.

من "جرووي" ذهبت إلى الشمال الجغرافي حيث تقع بشموخ مدينة "بوصاصو" الجميلة بتنوع أهلها وفسيفسائها السكاني لكونها حاضنة للشعب الصومالي في شتى مسمياته وكياناته وقبائله، أو بالأحرى هي الأم الرؤوم التي تجمع في أحضانها كافة أطياف الشعب. كنت أتذكر وأنا أسير على الطريق الطويل الذي يربط جرووي عاصمة "بونتلاند" بمدينة بوصاصو لؤلؤة الشاطئ حكايات الأيام الماضية وسفري الأول إليها، كانت النسائم تلامس وجوهنا فتمنحنا ومضات من السعادة، وكنت أشعر بمسحة شوق عارمة وأنا أطالع عبر صفحة الأرض الحياة الصومالية الأصيلة التي يمارسها البدو في مرابعهم، هنا أغاني الرعاة تملؤ الآذان نشوة وطربًا، والبيوت القديمة باقية بلونها المتميز ومعمارها القديم، وهناك أطلال لقرى اندثرت بعد أن كانت مزدهرة.

على وقع الحنين مضينا نصعد ذرى الجبال ونتسلق هامات الروابي وصدى المقولة الشهيرة للقدامى:" الأمكنة بناسها" تتردد على مسامعي لطيبة الشعب وسماحته، الابتسامة الساحرة المطبوعة على الوجوه، والطمأنينة الموسومة على ملامحهم كانت ترسم في مخيلتي تفاؤلًا وترقبًا للسنوات القادمة التي نتمنى أن تحمل للشعب الصومالي إكسير الحياة ودولة قوية تعيد الكرامة وتحفظ التاريخ والتراث. نهر الأدب والشعر ومجالس الأحاديث لا تتوقف أبدا، والأنس يعم جنبات السيارة، الكل شارد مع حكاية جميلة لكهل يتفنن في السرد وتلحين الحكايات. كنت مُبهَرا بتقاسيم سيدة في أعتاب الخريف تنظر إلى الرجل بعيون أرهقتها السنون، وأهداب مثقلة بطول العمر وتقلبات الأحوال، في حين

كانت فتاة في مقتبل العمر تقول بسخرية مؤلمة للكهل: لا أريد أن أتربع على شرفات الكآبة وجسمي الذي أكله الحنين لا يقوى على سماع هكذا أخبار تتحدث عن الماضي لذا توقف ولا ترهقني أرجوك.

كنت أود أن أتبحر مع الكهل القاص الذي يحدثنا عن كل شيء، عن الجبال والمعالم، عن الشعب والقبائل، عن التراث والتقاليد، عن الشعر وجماله والسلاسل الشعرية المعروفة في الأدب الصومالي، عن النثر والأحاديث الشائقة، عن الحروب والصراعات والأيام المشهورة، عن المستعمر وأيامه وما مارسه ضد الشعب الأعزل في القرى والمدن وفي بطون هذه الأودية، عن الدين والأوراد والتصوف، عن الصحوة والحركات الإسلامية والأحزاب الدينية الذين خاضوا معاركَ عبثية وحروبًا تدميرية ضد الشعب الصومالي في الأقاليم الشمالية الشرقية للوطن، عن الحاضر والمستقبل، عن المرأة والسياسة وكل شيء له علاقة بالصومال، كان تحفة نادرة ووعاء مليئًا بالأخبار وأحداث الماضي.

على جنبات الطريق المعبد كانت الجبال الرسوبية والهضاب الرملية تحيط بنا ولم نسمع سوى هدير الطبيعة وسكون الحياة في الأراضي الشاسعة بين المدينتين، كنت أستمتع بهذه المناظر والأجواء الصافية، وأتمعن صفحات هذه الجبال المختلفة، لأتعرف على تفاصيلها ومكوناتها الجيولوجية ومظاهرها الطبيعية لعشقي الكبير للجيولوجيا والمعادن المكونة للصخور. كنت ألمح من خلال النافذة قطيعًا من الإبل يمرح ويسرح في عمق سهول "نُغال" وعلى مسامعي بقايا نغمة أصيلة لأغنية كلاسيكية، وأغنام ترجع من المراعي قبل الغروب، وبدوي يحث الخطى نحو بيته قبل أن يكسو الأرضَ ثوبُ الدجى، ولست أدري لماذا السمرة الصومالية الجذابة والضامرات الأنيقات كعادتهن

والثروة الحيوانية تبعث الشجو والمحبة في نفسي، ولكن ثمة أشياء يفرضها الواقع علينا منها العشق الأصيل للتربة التي ننتمي إليها، والجمال الذي يغطي أناقته على الجميع. أردت أن أشتري لبن الإبل الذي هو شرابي المفضل في كل مكان وحين من فتاة فرعاء فاتنة المحيا، ملامح صومالية أصيلة، وحياء بدوي موغل في تراثنا الذي نخاف منه أن يندثر بسبب غزو الثقافات الوافدة عبر القارات، وضعتْ يدها على فمها وهي تقهر ابتسامة سحرية كادت أن تنسيني كل شيء، لأنه في محراب الجمال الحياد لا يكون ممكنًا.

الطرق الترابية الممتدة نحو الشروق، وعبق اللبان، والجبال المحيطة بمدن تختزل الماضي بأطلالها أصبحت أماكن تحوي التاريخ، ومعالم رئيسة تختزن الحقب التي مرت عليها أرض "بونت" بدءًا من التاريخ القديم مرورًا بالممالك الصومالية والتجمعات القبلية، وحركة الدراويش بقيادة المناضل الكبير السيد محمد عبد الله حسن. أشعار الدرويش وأيامهم محفوظة في الذاكرة الجمعية للشعب الذي بادل النضال والتضحية بحب أدبه وقصائده، وعندما يلقي البعض قصائده الطويلة المتربعة على هامة الأدب الصومالي تخال وكأن الرجل مات قبل سنوات وليس قبل قرن من الزمن.

لم أر على طول الطريق وفي الأرياف وبطون البوادي أي خوف أو رهبة من المليشيات المسلحة في بلد يعاني من مصاصي الدماء وتجار الحروب، بل كانت الحالة الأمنية مستتبة إلى أبعد الحدود، نقاط تفتيش للشرطة المحلية التي لا تطمع أبدًا بما في أيدي المواطنين، ورأيت هناك شعبًا يعشق الحياة، ويقدر الوجود، ويحب الجمال، ويتفانى من أجل استعادة هيبته وحفظ أمنه من أيدي العابثين ومن الحركات الإجرامية التي جعلت إزهاق الأرواح وقتل الأبرياء مفتاحًا لدخول جنتهم! عشت المعنى الحقيقي للفنتازيا وأنا على صهوة سيارة

مسرعة ذابت في الطبيعة الجبلية الوعرة، لم يخْلُ الجو من البسطاء الذين ينتظرون الغد الأجمل في حياتهم، وعيون الكادحين الذين تخنقهم العبرات ويكبلهم الواقع ويؤلمهم العوز، وفي داخل المقاهي العتيقة التي تغفو كمسنٍ أتعبه السير كل شيء كان يعلوه الغبار، والأجواء الصيفية الساخنة تركت بصماتها الواضحة على محتواها.

كانت الأمنيات تتسع وترتفع كلما اقتربت إلى "بوصاصو" المدينة التي عشت فيها قبل سنوات وأنا في مقتبل عمري وفي خريف سنوات المراهقة، لم تستطع الذاكرة أن تشطب تفاصيلها عندما كنت أعيش مع أصدقاء لم أكن أشعر بينهم سوى بالمحبة بعد أن جمعتنا الحياة في تلك الحقبة الزمنية الغالية في حياة كل شخص. وعلى أعتابها تتداخل الخيوط، وتتزاحم الذكريات، ويتشابك الماضي مع الحاضر، الشوارع العتيقة ورائحة اللبان التي نصدرها إلى الخليج العربي والهند والصين، والمباني التاريخية، تشكل لافتات للجمال وعناوين لتاريخ بدأ منذ عدة قرون بعد أن سكن فيها خليط من القبائل الصومالية والعربية الذين أطلقوا على المدينة اسم: (بندر قاسم)، وهذا الاسم احتفظت به المدينة إلى يومنا هذا وإن علاه غبار النسيان وانطفأ بريقه مقارنة بالأحقاب الماضية.

كانت المدينة تنبض بالحياة والتجارة كعادتها، أسواق مكتظة بالمارة والسكان، زحمة في الأزقة الضيقة للأسواق القديمة، صخب الأطفال وصوت الأبواق تصدح في كل مكان، الكل مشغول بشراء احتياجات العيد التي تدق على الأبواب رغم جبروت السوق والتكاليف الباهظة للملابس ومستلزمات العيد. جموع تائهة في أودية الرزق والعمل اليومي تحت شمس الصيف الحارقة، وكادحون يطلبون العيش بعرق جبينهم وربما بصحتهم أيضا، الحالة

الأمنية والتقلبات السياسية في الوطن أثّرا على جبين عروس البحر ورغم ذلك ما زالت المدينة تحتفظ بزخمها السكاني ونشاطها الاقتصادي حتى أصبحت من المدن الرائدة في الصومال.

وعلى وقع الرحيل جلست قبالة البحر أراقب مناظر المياه والرمال الشاطئية، استمتعت بالمحيط والأجواء السحرية والزوارق التي تتراقص على وقع الأمواج وأشعة الغروب الوردية المتداخلة مع النسيم ليشكلا على صفحة البحر صورة أخّاذة تعيدني إلى عراقة المدينة وأصالة تراثها.

وفي "بونتلاند" سعدت جدًّا بلقاء أصدقاء أصبحوا نخبة المجتمع وممن وهبوا حياتهم لإسعاد البشرية وتحريك عجلة التنمية إلى الأمام، كانت الأحاديث الليلية لا تنتهي برفقة الطيبين وممن جعلوا إقامتي في أرض بونت رحلة ماتعة بكل المقاييس. وبعد نقاش عميق رأيت رغبة عارمة وإرادة حقيقية في عيون الشباب المثقفين، وإن كانوا يتذمرون من الوضع المزري ويتألمون بسبب الكوارث التي حلت بأمتنا. رأيت شبابًا يحاولون قدر المستطاع رسم البسمة على جبين الشعب رغم قلة اليد وصعوبة الموقف.

سناغ.. أرض الأجداد

كان الجو صحوًا والأشعة ترسل دفأها على جنبات الكون، الأجواء مترعة بمرح الأطفال ووجوه جذلة بزغاريد الأعياد والحفلات الدينية في قُطر يعتبر الدين نبضه الأكبر والمكون الأساسي للثقافة والانتماء. بعد الثالثة ظهرا وصلت إلى مدينة "جالكعيو"، كانت منهكة منذ أن أصبحت ضحية للمزاج السياسي وصراع القبائل وشبح الاغتيالات، في وسط هذه المدينة الحزينة يرهقني التفكير، كيف حوّلها تجار الحروب من مدينة باسمة تعتبر شريان الصومال إلى مدينة يفصلها خطوط الموت وشوارع مغلقة بالمتاريس والأحجار تقسم الشعب وكأنها برلين الحقبة الباردة! شجن الأيام وعلى وقع مدينة علّق الصوماليون عليها آمالًا جسامًا رغم التشظي يجعلني أبكى بصمت وأراقب عبر نافذة السيارة التراث والإبل والجبال، الطريق معبد ويخترق جبال من كالكوارتز الذي يدخل في صناعة الكهرباء والمجوهرات والسيراميك إذا وجد الأدمغة المتعلمة، توقفنا قليلا على مشارف قرية ريفية

صومالية الطابع والملامح، وبعد لحظات من احتساء الشاي بدأنا المسيرة وتعمقنا نحو الجمال الذي يغفو على جبين الثروات والانكسارات، هنا أغنام تسرح، وهناك راعٍ على الهضبة المجاورة ينشد إبله، وسمراء تمضغ صمغًا وتضحك بلذة فاتنة، والنساء الصوماليات لهن ضحكات مثل الأجراس سلاسة وإيقاعًا.

الصوماليون رعاة مهرة، وصيادون من الطراز الأول، ومحاربون أشداء، يمتد وطنهم التاريخي من رمال المحيط شرقًا إلى هضاب الحبشة غربًا، ومن وراء نهر تانا جنوبًا إلى جوار الدناكل بمحاذاة البحر الأحمر شمالًا، ولم يكونوا طيفًا واحدًا في المهنة والحياة، بل كانوا رعاة رحل في الريف والأدغال، وتجارًا في السواحل، ومزارعين على السهول وعلى ضفاف الأنهار، والسبب الذي جعل أرضهم مترامية مقارنة بأعدادهم هو التنقل والبحث عن القطرة والعشب، وإذا ما وصلوا إلى أرض يسودها المياه والكلأ كانوا لا يعودون منها أبدًا، وقد أجبرتهم الظروف أن يكونوا متمرسين في الحروب والنجدة والسير لمسافات طويلة على الأقدام.

وقفت على أعتاب بلاد البخور والعطور والممالك التي حكمت المنطقة ووصل صداها إلى الهند والسند والصين وبلاد العرب وسوفالة وزنجبار وموزامبيق. كان الاتصال دائما لا ينقطع بين الصومال وبين الشعوب وخاصة سكان شرق الأوسط من الكلدانيين والكنعانيين والآشوريين وغيرهم، وتروي الكتبُ الرحلات التاريخية للقبائل العربية إلى شرق أفريقيا منذ فجر التاريخ.

وعندما بزغ فجر الإسلام عرفت المدن الساحلية الإسلام قبل أن يصل إلى المدينة المنورة، وذلك عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى القرن

الأفريقي، ومنذ هذا التاريخ كان التداخل العربي الإسلامي مع سكان شرق أفريقيا والقارة عموما يتم بطريقة حضارية، ولم تكن الطبيعة تقف دون العرب ونشر دينهم وممالكهم فشيّدوا المدن وأثّروا على الملامح واللغات والفن والتركيبة السكانية. لقد أسس العرب حضارات وحكموا المنطقة وما زالت أطلال مدنهم باقية على شواطئ المحيط الهندي، كانوا قادة العالم في القرون الوسطى من حيث الحراك الثقافي والكشوفات، واتسموا بدقة النقل والأمانة العلمية، ويعتبر ابن بطوطة والمسعودي والإدريسي والحمداني وياقوت الحموي وعلي بن سعيد المغربي الذين زاروا الصومال وكتبوا أنها كانت من أكثر البلدان الإسلامية رخاء، كما كانت الممالك الصومالية تحمي المقدسات الإسلامية وتسيطر على الطرق الرئيسة للملاحة البحرية روّاد هذا المجال.

كانت ملاحظاتهم مذهلة وانخراطهم في الشعوب الأصلية تتيح لهم معرفة الخبايا والتغلغل في نفوس الأفارقة ومعرفة البلدان والقبائل، وتعد مراجعهم في غاية الأهمية خاصة وأن العرب كان لهم أكبر الأثر في المدن الساحلية. لقد ترك العرب في المشرق الأفريقي إرثًا حضاريًّا ظل صامدًا إلى يومنا هذا رغم مرور آلاف السنين من هجرتهم إلى الجزيرة العربية والشمال الأفريقي نحو السواحل الشرقية وعمق أفريقيا، والهجرات العربية لم تكن مثل الهجرات الغربية تنهب الخيرات وتستعبد البشر، بل كانوا يقطعون الأميال وينشرون الإسلام ويعبدون الطرق ويوطدون أركان الدولة ونظام الحكم والسلطة في كل البلاد التي وصلوا إليها حتى طبقوا معظم مبادئ الدولة الحديثة، ولم تكن الطبيعة الرعوية ولا السلاسل الجبلية والمستنقعات والأنهار تقف حائلًا دون العرب والتوغل في أحراش أفريقيا من أجل نشر حضارتهم وممالكهم وثقافتهم. كانت لقوافلهم وتجارتهم عبر المحيطات أعظم الأثر في انتشار الإسلام والحضارة حيث إن الصومال لم تكن للأنهار فيها أي دور

حضاري أو ثقافي باختلاف باقي أفريقيا التي كانت الأنهار صانع الحضارة والرافد الأهم للحياة، بل كانت البحار والمحيطات الوجه الأبرز للثقافة وصناعة الحضارة وخلال وجود العرب في أفريقيا كانت الثقافة العربية الإسلامية هي البارزة في الجزر والبلدان الساحلية من مصوع إلى موزمبيق وسفالة وجزر القمر.

بعد مئات السنين شوه المحتل الأوروبي تاريخهم وقرن اسمهم بالرق والعبودية والسيطرة على ثروة الأمم حتى خزنت الذاكرة الجمعية للشعوب القاطنة في القارة أن الاستعمار العربي أسوأ من الاستعمار الغربي، ويعتبر هذا الكلام إجحافًا بحقهم وبعيدًا عن الإنصاف والعدل حيث كانت الهجرات العربية تهدف إلى تعمير الأرض والانخراط في الشعوب المحلية، بينما كان الرحالة الأوروبيون يحملون نظرة شوفينية ويعتبرون طليعة الاستعمار الذي قاد الشعوب المستضعفة إلى الركود الحضاري والتخلف الاقتصادي والمعرفي.

وبعد وصول المحتل الأوروبي إلى بلاد الإبل والأدب والسمر الطوال اندهشوا على المستوى الثقافي والإداري الموجود في هرر وزيلع ومقديشو ومركا وكسمايو، ومعظمها مدن ساهم العرب على بنائها ومنحها بعدًا ثقافيًّا وحضاريًّا، ورغم ذلك كتب المستشرقون عن تلك المدن وشعبها بتحامل كبير ولم ينصفوا في كتاباتهم بل وكغيرها من الدول الأفريقية أطلقوا عليها "بلاد الفقر والرماح والتوحش".

كنت غارقًا في وحول التاريخ ومطبات الجغرافيا، حيث المعالم الأثرية ومجالس سلاطين "ورسنجلي" تفوح منها رائحة العراقة. سلطنة "ورسنجلي" تأسست على المناطق الشمالية للصومال في القرن الثالث عشر وذاع صيتها بعد بروز حركة الدروايش كقوة محلية قوية عام١٨٩٧م، وخاضت السلطنة ضد

الحركة حروبًا من أجل البقاء، ورغم صراعها ضد الدراويش والقبائل لم تستسلم السلطنة نهائيا، بل استمر حكمها إلى أن تربع على عرشها السلطان محمود علي شري الذي نفاه الإنجليز إلى جزيرة "سيشيل" مع الثائر المصري سعد زغلول خوفًا من تنامي قوته وتأثيره بعد هزيمة الدراويش عام١٩٢١م.

شنّ الدراويش حروبًا ضد المحتل الأوروبي والقبائل والكيانات المعارضة. وفي عام١٩١١م هاجم الدراويش على معاقل السلطنة، كانت حربًا استخدم فيه جميع الأسلحة المتاحة في تلك الحقبة التي كان الدراويش فيها تولي اهتمامًا كبيرًا على وجع العدو الخارجي وإخضاع القبائل وجيوب الاستعمار وبسط سيطرتها على المنطقة. وبعد إخضاع معظم القبائل اهتم الدراويش ببناء القلاع، وتشييد الحصون، وحفر الآبار، وتطوير المدن، وتثقيف المجتمع، وحثهم على الجهاد ومقارعة النصارى والقبائل المارقة عن حكم الدراويش، كما اهتموا بالأساليب الدفاعية وبناء وحدات للهجوم السريع والمباغت الذي أحرج الإمبريالية طيلة ٢٠ سنة استمر فيها النضال في ربوع الوطن، ومن المؤسف حقا أن هذا التاريخ المشرف لا تعرفه الأجيال الصومالية الشابة، ولكن عندما نستعيد وعينا الثقافي الغائب منذ ثلاثين سنة ونقرأ سير الأحداث ومذكرات الجنرالات الذين حاربوا ضد الثورة الصومالية ندرك عظمة هذا التاريخ وبطولات الدراويش الذين أرهقوا الإمبريالية ماليًّا ومعنويًّا وعسكريًّا وبسببهم نجى الله الأمة من التنصير.

كنت أجرُّ ألمَ الحاضر والماضي وأنا أسير نحو القلاع ومجالس الأجداد والمواقع الأثرية المجهولة رغم أهميتها، أمة أهملت ماضيها وتسير بجنون نحو طمس المعالم، حتى أصبحت الصومال دولة هامشية ومجهولة في المخيلة العالمية! ولم تكن كذلك، بل كانت مؤثرة في محيطها وما تم اكتشافه من الآثار

والمقابر التي ترجع إلى آلاف السنين في بعض المناطق يعتبر ضئيلًا جدًّا بالنسبة للمخفي الذي ستكشفه الأجيال القادمة بعد تشجيع الأبحاث الأثرية وقراءة الكتابات المنقوشة على الكهوف والحجور. والغريب أن سكان مدينة "بَرَنْ" أخبروني أن الهيئات العالمية تهدم القلاع الأثرية وتستخدم مكوناتها على أشياء لا تمس حياة الشعب إطلاقًا!

ومن أجل تصحيح التاريخ والجذور يجب أن نبحث عن الوثائق الأوروبية وترجمة كتبهم ومعرفة خواطر الرحالة القدامى أمثال الإغريقي سيكلاكسن الذي زار المحيط الهندي والبحر الأحمر بسنة قبل الميلاد، وباربوسا البرتغالي الذي قال عن مقديشو: (كان ميناؤها مزدحمًا بالسفن ورائجًا بالبضائع)، وسبر غور رحلات مغامري أوروبا والإرساليات في المشرق الأفريقي، كما يجب أن نتابع خيوط الهجرات وتأثيرها على التركيبة السكانية والتداخل الثقافي والعرقي والرحلات المتبادلة بين شعوب العالم وسكان الصومال لمعرفة الحضارة وتحديد الماضي بدقة تقودنا نحو إثبات الهوية والأزمة القديمة الجديدة حول الأصول والجذور الضائعة بين السرد والشفاهية.

مناظر طبيعية وجبال تعانق السحاب والضباب، وآثار قديمة تعود إلى حضارة البونت ومملكة سبأ التي حكمت اليمن والبر الأفريقي المقابل لها، كما توجد أيضا أضرحة عريقة مجهولة العمر، وبعضها يعود إلى الأجداد الذين انحدرت منهم معظم القبائل الصومالية حتى سميت المنطقة أرض الأجداد، كما توجد المعادن وأجود أنواع الذهب والماس، وفي عهد الحكومة الصومالية بقيادة الرئيس الراحل محمد سياد بري -رحمه الله- أبرمت اتفاقية مع شركة رومانية لتنقب عن الذهب.

تربعت على فندق يقع على بعد أمتار قليلة من بئر مدينة برن الذي تناقلت الأجيال وفرة مياهه وحيويته، وقلاع أثرية تشهد هندسة معمارية فريدة تدلنا كيف تطورت فنون الدفاع والقتال في الصومال، كان الليل فاتنًا وكنت أغوص في أعماق حضارة الأجداد الضائعة، آباؤنا العظام كانوا بواسل يحملون شعلة التحدي فمضوا يفتحون الأمصار ويعمرون الأقطار حتى وصلوا إلى حدود "كسلا" السودانية، كانوا كالشهب يضيئون الطريق ويحرقون الجهل فأسسوا المدن المقرونة بالحضارة قبل مجيء الحملات الاستعمارية التي هزمت الممالك وأحرقت المساجد وهاجمت على الإرث والزعامة الصومالية حتى انحسر سيطرتهم وتراجعوا آلاف الأميال نحو "هرر" وما وراءها من الشريط الساحلي، ورغم الانحسار والتراجع لم يرض المحتل فقطع أوصال الأمة ومزق وحدتها وكيانها. لقد أضعنا ما بقي من الوطن والكرامة، كان الشعب يصغى إلى موسيقى الحياة والسلام والسمرة، ويمارس الحياة في ظل دولة تحمي الحقوق والمصالح والماضي والموارد، وكانت المزارع تجمل على ضفاف الأنهار والمعادن تستخرج من باطن الأرض فتجاوزنا الحدود وتمادينا في المعارك فذبلت الحقول وضعفت القلوب وتفرقت الجموع، وأصبحنا شعبًا محكومًا عليه بالإعدام بسبب سماسرة يزهقون الأرواح ويقتلون الأبرياء وينشرون الحقد في أوساط الشعب الذي تحول بعد سنوات من القهر بلا ملامح ولا طموحات بل بلا حياة.

ذهبت بعيدًا في عمق الخيال فتربعت على قمة الحزن وأنا أغادر بلاد ماخِر إلى صوب الجنوب الغارق بالحروب الأهلية، نظرت إلى الجبال المحيطة على مدينة "بَرَنْ" وابتسامتها رغم التعب فأحببت لو طالت زيارتي في "سَناغْ" ومرابعها وأهلها الطيبين ولكن استسلمت للرحيل خائبًا محبطًا.

من كسمايو إلى كيغالي..
رحلة نحو أدغال أفريقيا

كنت في مدينة صومالية تصافح المحيط عندما انثالت عليّ الذكريات وأنا أتأمل حياة أفريقيا الملتهبة من أقصاها إلى أقصاها، في أعماق الألم حلّقت بعيدا فوق القارة الغنية بمواردها وبؤسها أراقب أحلام شعوبها وتطلعاتهم في ظل القهر وتكميم الأفواه الذي جعل الشعب كتماثيل حزينة لا إرادة لهم، إضافة إلى العبودية الجديدة المتسترة وراء رداء الهيئات العالمية.

من "كسمايو" اتجهت غربًا نحو بلاد الشعر (أوغادين) وكأني ألاحق الشمس وهي تعزف لحن الغروب خلف روابي إقليمٍ جرى فيه صراع عالمي مصغر منذ أن منحته بريطانيا الإقليم الغني بالثروات لإثيوبيا نكاية في الشعب الصومالي الذي أبى أن يعيش الإنجليزُ بسلام في أرضهم، كنت أحث الخطى نحو تاريخ أمتي وأمجادها الضاربة في عمق التاريخ، الألحان الشجية، وأريج اللبان، ورائحة الإبل الممزوجة بالأدب، وتكايا السلاطين والمدن التي تحاور

الثروات تثير في وجداني مشاعر عتيقة وتشكل "زوايا غير محكية" تنتظر حكّاءً ماهرًا يقدمها للعالم.

الصومال العريق بتاريخه منذ مملكة بونت وما تلاها من الممالك والحضارات اشتهر في السنوات الأخيرة بأزمته الإنسانية المتكررة! ولكن ما لا يعرفه العالم أن هذا البلد يعني قرابة مليون كم٢ من الإبل والمحيط والملاحم. والجريمة الوحيدة التي اقترفناها أننا أردنا أن نعيش أحرارًا نحمل لواء الإسلام وأنفة ورثناها عن أسلافنا، وأرادت الإمبريالية أن نعيش بلا وطن ولا هوية ولا انتماء، وأن نكون موزعين على البلدان المجاورة لكسر شوكتنا وتمزيق وحدتنا. منذ ربع قرن وشعبي الصومالي قابع في أوحال الحروب وفواجع التشريد، وصوّبوا بنادقهم صوب صدورهم بعد أن كانت تدافع المقدسات والمعتقدات عبر سلسلة من النضال الطويل من أجل المبادئ والمقدّرات، فقد حاربوا البرتغال في عمق البحار، واستحوذوا على أجزاء واسعة من أراضي شرق أفريقيا ينشرون الإسلام ويحاربون الجهل، وتوغلوا جنوبا نحو السافانا والتلال المغطاة بالثلوج والسمرة الغامقة، وفي بداية الحملات الأوروبية قسّم الاستعمار أراضي الصومال إلى خمس أجزاء تجمعهم الأمنيات، وفي سبيل تحقيق مطالبهم سقط الملايين وجرح مثلهم، ولم يكن الطريق مفروشًا بغير الدماء ومقارعة نصارى أوروبا وأباطرة أباسينا وسياستهم التوسعية عبر التاريخ.

توغلت في أفريقيا وتجاوزت الحدود المصطنعة بعد نكسة برلين ١٨٨٤-١٨٨٥، وتعمقت في الجرح الأفريقي النازف منذ قرون. في صغري كنت أحمل همّ قارة المستقبل، أعجبني لحن المناطق المرتفعة، وأبهرتني قوة ساكني الأحراش، وسحر الحلم القابع وراء الحناجر التي تهتف بالحرية ولو بصوت

متهدج خلف ضجيج الجغرافيا ومونولوجيا الذات، كنت أكتب قصصهم وأحكي عن أشواقهم عبر مداد قلمي بفيض من اللذة والألم ومحاربة الركود الثقافي للمجتمعات. في قلب حيّ "كابيرا" الكارتوني في نيروبي وعلى جدار مقابل للبيوت المطلة على المزابل التقيت شابًا في مقتبل العمر، كان يتحدث عن مأساتنا وهو ينفث دخان سيجارته: "لقد حوّلت الأدمغة العفنة أفريقيا إلى أوكار للفاقة والجريمة، الاستعمار لم يذهب بل بقي في بلادنا يجثم على صدرنا، ويقتل أبناءنا تارة عبر وكلائه الذين أوصلهم إلى رأس الهرم، وتارة بالتدخلات، ومرات عبر السيطرة المطلقة على الإنتاج وتحديد أسعار الخامات، ليأخذ الغرب الأموال ونحن لعنة الثروة.

في المعابر والمطارات لا صوت يعلو فوق الترقب وهاجس الجنود والأسلاك والجدران الفاصلة بين الأفريقيين. المؤسسات المدنية الفاعلة والتحول الديمقراطي باتا ضربًا من الخيال في ظل جيوش ذابت في السياسة لتحمي عرش الطغاة، القوات المسلحة في أقطارنا هي اليد الباطشة للأنظمة المستبدة، فبدلًا من ابتعادها عن السياسة وانغماسها في المهام الرسمية انخرطت فيما لا تتقنه فتاهت في مسالك القمع والإرهاب، وبامتزاج رغبة العساكر مع أطماع المؤسسات المدنية المأزومة تكونت دولة المافيا، وأجهزة بلا كفاءات تغرق في الشبر الأولى من مشاكل الوطن بعد أن هربت الأدمغة المثقفة إلى الخارج خوفًا من السجن أو القتل. نلنا الاستقلال الصوري وغادر المحتل، وترك لنا إرثًا من صراع الهويات والمصالح والأيديولوجيات، مما صعب على مجتمعاتنا الخروج من شرنقة الالتباس، وبناء فكر مستقل يؤسس أفريقيا جديدة تنفض الغبار وتحارب ضد عوامل التخلف والعوز".

كان يحلل الأطماع الغربية بعبقرية، اعتراه حزن شفيف فتحول لونه الأسمر إلى ملامح ملوّنة بالشجن والخوف من المستقبل الذي يطرق على الأبواب، سألني ما مدى صلاحيات النظريات الاقتصادية المطبقة علينا منذ عقود؟ هل تقودنا نحو الازدهار أم ستكرس الفوارق الطبقية وستكون القارة "مكانًا قذرًا لا يصلح للحياة" حسب وصف شارل الثاني ملك إنجلترا؟ أجبت لا أدري! وأنا أعرف أن محاولة الإجابة سوف تقودني إلى متاهات وسيل من الاستفهامات! ولكن ما أدهشني هو كيف كان يهتم بالمستقبل والعنف المسيطر على القارة التي تقف اليوم في مفترق الطرق.

على طول الطريق الرابط بين القرى والمدن والأحلام دروب وعرة يغطيها ضباب الإحباط وتحيطها المعاناة. على مقربة الحدود الرواندية الأوغندية، وعلى مشارف الحدود الإثيوبية السودانية وعلى تخوم المدن الكونغولية، وسنوات الترحال في كينيا، وفي عمق المراعي الشاسعة للصوماليين في القرن الأفريقي كانت أسئلة بعينها تقض مضاجعي، لماذا غزت أوروبا أفريقيا إذا كانت تعاني من الأوبئة والتخلف؟ ولماذا إلى الآن مازال الاقتصاد الغربي يعتمد عليها؟ وما سرّ الحدود الوهمية التي قادتنا إلى ظلم الجغرافيا والأزمات؟ في قرارة نفسي كنت أعلم أننا ضحايا المصالح الإمبريالية ونحتاج إلى سنوات من الجهد والمثابرة كي ننسى لدغاتهم، وسنوات أخرى كي نستطيع أن نقول لا للتدخلات الخارجية لنحافظ على خصوصياتنا، يجب أن نستعيد إرادتنا واستقلالنا الاقتصادي كي نستعيد استقلالنا السياسي إذ "لا استقلال سياسي دون استقلال اقتصادي".

أستطيع أن أتخيل وأنا في قرية أوغندية صغيرة لا تظهر أبدًا على الخرائط كيف كانت حياة قبيلة لانغو (Lango) النيلية التي نزحت من الشمال

واستوطنت في الأراضي المطلة على السفوح الخضراء في شمال وسط أوغندا، كانوا رعاة ومزارعين يتنقلون بين الشمال والجنوب بحرية، يهتمون بالرقصات والموسيقى والحروب وثروات نهرهم موروتو، وبعد مجيء الغزاة أصبحت حياتهم فصولًا من العبودية وتغيير المعتقدات مثل أشقائهم الأفريقيين على ربوع القارة التي ارتبطت في مخيلة الغرب بأنها قارة المجهول والوباء والشعوذة! رغم أنها كانت قبل غزو الإمبريالية قارة تتمتع بمقومات حضارية واقتصادية فاقت إمكانيات المقاطعات الأوروبية التي كانت راسخة في التناحر والأوهام في العصور المظلمة أوروبيًّا. لقد شيّد الأفريقيون حضارات وأسسوا أنظمة ناجحة للحكم والحياة في حين كان الأوروبيون يتسربلون رداء الرجعية ويغطّون في نوم عميق، وبعد النهضة الصناعة استخدم الأوروبيون التقنية الحديثة لإذلال الشعوب والقارات ولم يستخدموها لإسعاد البشرية؛ فهاجموا على أفريقيا الواعدة.

في معظم رحلاتي كنت أحاول نسيان الوحشية التي مارسها المحتل ضد الأفريقيين، وأستمتع بالنماذج المحلية الجميلة، والطبيعة العذراء، لذا كنت أبحث عبر بطون الكتب واللقاءات ومضة عابرة، أو نهضة مرتقبة، أو نموذجًا ناجحًا في مجالات الحياة، وكنت أتمنى أن أرى أفريقيا تستفيد من خبراتها وتبتعد عن سطوة الجنرالات ولعنة السياسيين، وصدارة الشاشات عندما يتعلق الخبر بالقتل والدمار. اتجهت إلى "رواندا" التي تشكل نموذجًا فريدًا في استحواذ العنف ونسيان المجازر من أجل مستقبل مشرق يسع الجميع.

كانت الثالثة فجرًا وكانت "كيغالي" التي تأسست عام ١٩٠٧م ارتدت رداء الضباب وأحاطتها الغيوم عندما حلقت الطائرة فوق بحيرات وأنهار وهضاب لا يغيب الجمال عنها، ومدينة طالما أردت زيارتها بعد أن أصبحتْ

حديث الركبان. كنت على متن الكينية للطيران ضمن مسافرين جاءوا من أقاصي الدنيا إلى منبع النيل والمدينة الأنظف أفريقيا عام ٢٠١٥م، رغم أنها تعاني من تخمة تسويقية فيها كثير من الفنتازيا شعرتها بعد أن راقبت حياة الشعب عن كثب بعيدًا عن تهويل الإعلام وتقييم المنظمات العالمية الذي لا يخلو من المبالغات والأجندات السياسية.

في مطار "كيغالي" لمست جودة الخدمة وسلاسة التنظيم وحسن الضيافة لأولئك الذين كانوا يشبهونني ملامحًا وأحلامًا، كانوا يحملون سحنتي وإيماني بأفريقيا، هكذا شعرت أو بادر إلى ذهني في الوهلة الأولى، قد يكون التعامل المغاير والابتسامة الدافئة ما رسم في مخيلتي هذه الصورة الرائعة للروانديين خاصة وأن حاملي الجواز الصومالي يواجهون التمييز والتضييق والتهجم والابتزاز في كل المطارات، وربما كنتُ ضحية لمضاعفات الأساطير الصومالية التي تروي وبدون دليل رسمي - حسب علمي - أن الروانديين وخاصة التوتسي منهم هاجروا من القرن الأفريقي إلى عمق القارة، والقرن الأفريقي هو الموطن الأصلي للصوماليين قبل الكيانات الناتجة عن مؤتمر برلين ١٨٨٥م ، والشعوب الأخرى مطلة عليه.

لمست في عيون الموظفين والإداريين وجميع من قابلتهم في محيط المطار والفنادق، وعلى ضفاف بحيرة كيفو، ومزارع الشاي في روهنغيري (Ruhengeri)، وقبائل أباتوا (Abatwa) الأقزامية، وساكني الأحراش الماطرة المتاخمة للعاصمة بريق الثقة والعمل الجاد الذي استطاع أن يحوّل "كيغالي" من عاصمة الإبادات والصراع القبلي إلى حاضرة متطورة تنافس العواصم الأفريقية! كان يدور في ذهني لماذا لا نستطيع نحن الصوماليين ترك إرث الحروب الأهلية والانخراط نحو بناء دولة صومالية قوية تعيد للوطن

هيبته وللشعب كرامته واعتباره أمام العالم؟ ولماذا لا نحتذى تلك الإرادة التي تستطيع تحويل الاحتقان والكراهية إلى طاقات إيجابية عبر المصالحات الوطنية والعيش المشترك؟ السرّ هي القيادة الواعية والرغبة الحقيقية. نحتاج إلى قيادة رشيدة تحمل رأي الحكماء، وجاذبية العظماء، وصدق البسطاء، وحزم الشجعان، ورقة الأمهات، وجمالية الوطن، ورؤية سياسية شاملة من أجل انتهاء كابوس العنف.

سريعًا خرجتُ من المطار وسرتُ تحت ظلال القمر وعبر دروب موغلة بين التلال والوديان وخضرة لا تنتهي أبدًا. في طريقي إلى بيت صديقي الدكتور الشافعي الذي يقع على تلال نيارجينجي (Nyarugenge) وعلى صهوة سيارته كانت المدينة تتكشف سحرها وسط ألف تلّ، ولاحت تحت فضول الاستكشاف مدينة تتعافى من آثار الحروب وعاصمة ذات طابع غربي إمبريالي حيث الشركات الغربية العابرة للقارات والمنظمات العالمية والهيئات الأممية تتنافس على إحكام قبضتها على العاصمة مما جعلها قبلة السياح والاقتصاديين والمنظمات العالمية. مسبقًا كنت أنوي زيارة معالم المدينة وقراءة وجوه الناس وطريقة تفكيرهم ومعرفة ثقافتهم وحروبهم وأدبهم لذا ذهبت في الصباح الباكر مع صديقي الذي يعتبر من بقايا النبلاء الصوماليين وممن لم تغير الحروب طباعهم وطيبتهم إلى عمق "كيغالي" فأدهشني كيف حوّلوا الصراع إلى وئام والقبح إلى جمال! وحكايات الحروب إلى مضاحك وذكريات، هنا طرق نظيفة كانت بالأمس القريب مغمورة بالوحول والبالوعات وصديد الأموات، وصحافة وطنية تذيع الجمال والإبداع بعد أن كانت وكرًا للانقسامات وبث الكراهية ومنبرًا مسمومًا لأمثال حسن نجيزي (Hassan Ngeze) الذي ساهم وبطريقة بشعة وبعيدة عن المواثيق الأخلاقية الصحفية ـ إبادة الملايين عبر الصحف والراديو الذي يحث على المجازر. لقد تغيرت

النظرة والسرديات الشعبية واختفت مصطلحات التفتيت والتقسيم وحلّ محلها كلمات السلام والمحبة ومراعاة الحقوق.

على وقع الدهشة الممزوجة بجرح إنساني عميق ذهبت إلى "متحف الإبادة الجماعية" في وسط العاصمة، المشهد المبكي سيظل عالقًا في الذاكرة.. دموع تنهمر على خدود الثكالى وجبين الأيتام، مرارة مرسومة على وجدان الأرامل طيلة عقود، ابتسامة واسعة اغتالتها آلة الصراعات، ذكريات موحية، وجدران مليئة بالصور والرسومات، كتب متنوعة اللغات ومتباينة في وصف الحروب. الرسومات غارقة بالمخملية والإيحاءات وتمجيد السلام، والمنحوتات عكست على الألم الذي يعانيه المجتمع بعد أن فقد الأهل والأحبة. قصص المأساة الإنسانية كانت مؤلمة عندما كان الشيخ عمر يتحدث عنها بنبرة خيم عليها الحزن: "بعد السلام والحياة السعيدة لا أحد يريد أن يتذكر الحرب وقتامة التشريد والدماء التي كانت تخضب على تلال كيغالي وجميع مدن الوطن، لقد قطعنا شوطًا بعيدًا نحو توحيد المجتمع على أساس لحمة وطنية وهوية جامعة أعمق من القبيلة، لقد انتهت فترة المليشيات الهائجة التي أحرقت الشباب الضائع بين مطرقة القبلية وزندان الفقر، الرؤية الريادية جعلت الشباب الهمجي الذي قتل مليون بريء قبل عقدين إلى شباب منتج ومنبع للسلام ومصدر للتطور الرواندي الملحوظ عالميا وأفريقيا، وهذه لفتة تحتاج إلى دراسة حيث إعادة القيم وأخلاق مجتمع ما قبل الحرب الأهلي كان صعبًا في قطر تحيطه المشاكل وتنتشر في تلاله الخضراء آهات الحرب وحكايات القتلى وآثار أسوأ إبادة أفريقية في التاريخ الحديث". أما جوزيف فيتذكر عن ذكريات الطفولة الضائعة بين الهويات القاتلة، الأطفال كانوا الحلقة الأضعف حيث تم قتلهم وأسْرهم وإبعادهم عن أسَرهم وبذلك فقدت ديناميكية الحياة الرواندية عمادها في الحياة وهي الأجيال الشابة.

كانت سرديات الألم تثير فيّ أسئلة بعينها وتعيدني إلى طبول الحرب عند خط الاستواء هناك في بلدي المترنح بين زندان الإرهاب ومطرقة السياسي الفاسد الذي لا يتقن سوى تدوير الفشل وإنتاج الإحباط وتتضاعف المأساة عندما أتوغل في الفلسفة الرواندية للسلام وكيف أقاموا جسرًا إلى ماضيهم وجعلوه نبراسًا لتقدمهم، فالصراعات الصفرية والحروب الأهلية والقوقعة في الذات القبلية من الماضي. التسوية السلمية ورواندا ديمقراطية تسع الجميع والتطور والتكنولوجيا والانتعاش الاقتصادي والسلام الذاتي والانفتاح إلى العالم الخارجي وفتح أبوابها للشركات العالمية والجامعات الرائدة ونقل مكتسبات الحضارة العالمية إلى رواندا من الحاضر المعاش حاليا.

وبما أن وراء كل محنة منحة شَكّلت الحرب المجتمع الرواندي وصقلت نظرتهم للحياة، وهذا ما لمسناه في جميع من تعاملنا معهم من المطار إلى الفندق والأسواق الشعبية إلى الفضاءات الرياضية والطرقات الخازنة لآثار الدماء. إنهم يعيشون حاضرًا ملصقًا بالماضي، فالحاضر يستمد انطلاقته وقوته وتعدد ألوانه من الماضي القاتم الذي قسمهم إلى إثنيات وقبائل ومناطق متناحرة مما حول الدولة الأفريقية الحبيسة وقليلة المساحة إلى رماد وركام ومآسٍ، والتجاوز من الماضي لم يأتِ من فراغ، بل كان منهجًا تبنته الحكومة التي جاءت بعد المجزرة وأعطت الأولوية لفهم القضية ومنبع القتال، وأدركت أن العنف والفقر يعتبران حلقات متواشجة الصلة ومتسقة تماما، وبذلك ساهمت في تثقيف الناس وتحسين مستوى معيشتهم وردم الهوة بين المجتمع حيث ابتعدت عن الانتقام وتشريح جثة الحروب وتجاوزت النظرية القبلية الضيقة إلى نظرية وطنية جامعة وعمقت الهوية الوطنية في قلوب المواطنين حتى أصبحت عقيدة راسخة في الوجدان وحسًا جمعيًا يحمله المواطنون.

ومن الأشياء التي ساهمت في تخطي أتون الحرب هي المحاكم الشعبية، وفكرتها ترتكز على العفو وحث الناس على المسامحة إذ من المستحيل تطبيق القانون وتحقيق العدالة في وطن معظم سكانه منخرطون في العنف والإبادة بطريقة أو بأخرى! ملايين من السجناء لا تستطيع السلطة إعدامهم، ومن بينهم آلاف الأبرياء الذين اعتقلوا تعسفيًا، ومن هنا جاءت هذه الفكرة وطبقت الحكومة العفو والتسامح وترك الماضي دون نسيانه، واقتصاديًا ألغت الحكومة الضرائب وأصبحت التجارة حرة لانتعاش الاقتصاد المتدهور، وثقافيًا ساهم الإعلام الحكومي الموجه والأدب الهادف في تقوية مفهوم المصالحة الشاملة وتشجيع الشعب على التنقل من الكآبة والاحتقان إلى التسامح تحت مفاهيم وطنية، وعلى ذكر الأدب والثقافة فالأغاني الرواندية الكلاسيكية وفنّهم التشكيلي يؤرخان حياة شعب تلقائي بسيط لم يعرف الهموم في حياته وذاب في الطبيعية وعشق الزراعة قبل أن تغتال أهدافه وطموحاته فرق الموت والحالمون بأفريقيا جرداء تعمها الفقر وتحيطها الفوضى وحياة خالية من الإنتاج ونابضة بالخمول والبطالة والكساد.

ولم يقتصر الإصلاح والتغيير في الحكم والاقتصاد بل تجاوز إلى الثقافة والفكر حيث انتقلت الدولة من اللغة الفرنسية إلى الإنجليزية ثقافة وتدريسًا، ولكي تنتقل الدولة من ضيق الفرنكفونية الآيلة والمنخرطة في الإبادة الجماعية والتمييز العرقي إلى الإنجلوفونية المسيطرة على العالم طبقت الإنجليزية وبأسباب موضوعية واقتصادية وتاريخية أيضا. التحول من لغة إلى أخرى ليست بهذه السهولة التي نظنها، فرواندا التي كانت مستعمرة بلجيكية تغلغلت فيها الثقافة الفرنسية تركت حمولة الماضي إلى الأبد وتبنت لغة جديدة تفتح للطلبة آفاق العالم وتسهل لهم المعرفة ومواكبة التكنولوجيا الحديثة، ولم تقف عند هذا الحد بل جعلت السواحلية اللغة الرسمية في البلاد لتخرج

رواندا من عزلتها اللغوية أفريقيا إلى رحاب لغة تنتشر في ربوع القارة وخاصة الشرق. وللروانديين لهجة مهجنة ومشحونة بألحان من الفرنسية الخافتة ومفردات سواحيلية مبتسرة ابتعدت عن مهدها، أما كيف ينطق الروانديون الإنجليزية فمترعة بالجمال والألفة ودفء أفريقي ساحر، إنهم يختلفون في ذلك عن جميع الأفارقة الذين رأيتهم في دروب الحياة من نيجيريا إلى جنوب أفريقيا ومن عمق القارة إلى شرقها، إنها مزيج من عدة لغات، مخارج فرنسية وأحرف إنجليزية ونطق أفريقي عميق.

في "كيغالي" كانت لنا جلسة ليلية مكثفة بالماضي والتاريخ، ونقاش أخوي هادف مع كوكبة من خريجي جامعة أفريقيا العالمية في مقهى Citizen Corner في قلب كيغالي، لقد رجع بنا الزمن إلى "الأيام المتألقات" في الحرم الجامعي والقاعات الدراسية والقوافل الدعوية ونبل النيل وشهامة السودانيين، وتساءلنا بقلق ما هو وضع جامعة أفريقيا العالمية؟ وما مصيرها بعد الثورة السودانية والمفاهيم الجديدة التي نتجت عن الحراك الثوري؟ هل ستصمد وتظل أم ستنهار وتتلاشى ومعها ستنهار أحلام وذكريات وأماني وتاريخ عريق وإنتاج معرفي وإنساني لا يقدر بثمن؟ هذه الأسئلة كانت "محور نقاش" جلسة ثقافية وفكرية لكوكبة من خريجي الجامعة في أروقة فندق في عاصمة أفريقية تبعد عن الخرطوم آلاف الأميال.

تبتعد المسافات، ويتقادم الزمن، وتختلف الظروف والأمزجة وربما الأنظمة، ويبقى السودان بمختلف مكوناته ومشاربه الفكرية وأصقاعه تاجًا على رؤوسنا ردًا للجميل وحفظًا للود الصافي ومكارم الأخلاق، ورغم المشاغل ولجة الحياة التي تأخذنا بعيدًا إلا أننا نتفاعل مع الأوضاع السودانية نتابع أخبارهم نفرح بمسراتهم، ونحزن لإخفاقاتهم، ونناصر ثورتهم ونضالهم

السلمي العادل ضد الاستبداد والفساد وتحديد المصائر، فوطنهم عريق وثرواتهم كثيرة ورصيدهم المعرفي عميق، والشخص السوداني مثابر ومتميز بطبعه ويستحق دولة القانون والحكم الرشيد، ومن حقه أن يتساءل ويبحث عن الإجابات المقنعة في ظل مزالق سياسية حادّة ووضع اقتصادي مزري ينتج سرديات معينة في ضمن سياقات مختلفة عن العقود الماضية.

والصرح العلمي الذي أخرج آلاف الأفارقة من أحراش القارة وأعماقها وساهم في التنوير المعرفي ومحاربة الجهل ونشر الإسلام، وبات نبعًا ثقافيًّا ومعلمًا رياديًّا بارزًا في أفريقيا جنوب الصحراء يستحق الإشادة والدعم وكذلك التطوير ورفع كفاءته وتدعيم ركائزه، فلولاه لما عرفنا السودان وأهلنا الطيبين في بلاد النيل والحضارات والسمرة النبيلة. ويعتبر خريجو الجامعات السودانية عموما وجامعة أفريقيا خصوصا نخبةً أثرت على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أفريقيا جنوب الصحراء والأصوات التي تشوه سمعة الجامعات وخاصة أفريقيا وتدعوا إلى إغلاقها ما هي إلا حفنة متطرفة لا تقدر قيمة المعرفة ونشره بين سكان القارة، والمستفيد الأول في رأيي هو السودان الذي أخرج كوادر بشرية مثقفة تحمل الولاء والمحبة للسودان شعبًا وأرضًا وحكومة، وهذا مطلب كبير تسعى إليه الدول في عصر البحث عن القوات الناعمة والتحالفات الاستراتيجية المبنية على الفكر والأيديولوجيا والوجدان.

لم تقتصر زيارتي على "كيغالي" بل ذهبتُ إلى الأقاليم عبر سيارة مكتظة برائحة العَرق والشاي ومسرعة نحو البحيرات الأفريقية العظمى وبالذات نحو الحدود الرواندية الكونغولية، كان الليل بسواده يضفي على الأشجار والتلال المحيطة نوعًا من الحبور، وكنت سارحًا مع اللغة المحلية وبنبرتها

القوية، وكان تغير الطقس الذي كان دافئًا في المساء وأصبح باردًا وبلا مقدمات في الليل إضافة إلى المعتقدات الروحية الغريبة المزينة على أرجاء السيارة نوعًا من الغربة، ولو كنت من السائحين البيض المشبعين بالأنا المضخمة الفارغة الذين قرأوا في صغرهم كتابات ويلّارد برايس (Willard Price ١٨٨٧ – ١٩٨٣م) عن أفريقيا وأفاعيها وتماسيحها وشعوذتها أو المسافرين العرب المتأثرين بالنمط الغربي رغم أنهم حكموا أفريقيا قرونا سافروا عبرها وكتبوا عنها لجعلت عنواني "مغامراتي الأفريقية".

وصلتُ إلى مدينة "كيسيني" الحدودية بعد منتصف الليل وأخلدت للكرى ولم أستيقظ إلا وصوت المؤذن يجلجل جنبات البيت القريب للمسجد الكبير. أشرقت شمس أفريقيا الدافئة وتجولتُ في أنحاء مدينة تعتبر الشريان السياحي وواجهة تمثل التوجه الرواندي المتميز من حيث الأمن والنظافة والتشجير. في ذاك اليوم الغائم وفي عمق أفريقيا كانت الأمم المتحدة والمنظمات الدولية تحذران من السفر إلى الكونغو – الغنية بالمعادن والثروات الطبيعية والحروب الأهلية – وما جاورها من الدول، والأيبولا سجّل أول ضحاياه في مدينة "غوما" التي لا تبتعد عني سوى مئات الأمتار والواقعة على الجانب الآخر من الحدود، وصلت المدنية وأنا لا أعرف ما يدور في ردهات المنظمات ومكاتب الأمم المتحدة في العواصم الغربية، ولكن أستطيع أن أتخيل؛ من بعيد وفي غرف مكيفة تعلوها أنوار قرمزية ومطلة على الشوارع النابضة والأحياء الراقية أو الشواطئ الخلابة وربما غابات يحيطها الجمال يتذمرون ويرسلون قلقهم وتحذيراتهم إلى فقراء أنهكهم المرض وأتعبتهم الفاقة والطوابير الطويلة دون أن يحركوا ساكنًا أو يدفعوا قرشًا أو يساعدوا أحدًا. تملّكتني رهبة شديدة وأخرستني مشاعر متدفقة بالوجل خاصة وأنني أعاني من "الرهاب" في بعض المواقف. أخاف من المرتفعات الشاهقة ومن

الأمراض – نجانا الله منها وإياكم – وفي داخل الأنفاق أشعر باختناق حاد ونقص التأكسج، ولنفق الأزهر الشريف في القاهرة حكايات وأشجان.

في حُبسة الموقف وسياج الانكسار ظهر صومالي أصيل ليُعيد الابتسامة الواسعة على وجه بدوي أقلّته طائرة مسرعة من مرابع قومه ومن ديار اشتهرت بالرصاص القاتل والمدافع المدوية ولا تعرف الأمراض الوبائية إلا ما ندر إلى بلاد ماطرة وغارقة بالخضرة والتلال، يقتلهم الوباء وتسحقهم الأمراض المستعصية، وتحصدنا الانفجارات، وتقتلنا الرصاصة والأمواج العاتية في أعماق البحار والمحيطات ونحن نتطلع إلى حياة أفضل بعيدا عن أرض تشبهنا ومناخ دافئ طبع على ملامحنا سمرة قمحية؛ تعددت الأسباب والموت واحد. الطويل الباسم القادم من أستراليا أصبح وبساعات قليلة صديقًا أعرفه ويعرفني، ولا غرابة في ذلك فالصوماليون لا يعترفون بالبروتوكولات وتبغضهم الرسميات، يكفيك أن تنتمي إليهم بيولوجيا لكي تنسجم معهم بأريحية وتتحدث معهم في كل المواضيع من السياسة إلى الدين، ومن الاقتصاد الذي يتقن أصوله وقواعده إلى الترحال، ومن المرأة إلى الرياضة، ومن الثقافة إلى الأفلام، ومن الشعوب وخلجات الإنسان إلى حياته الشخصية. كان يحدثني عن أيامه في أستراليا، ورحلاته الممتدة من سول عاصمة كوريا الجنوبية إلى لاغوس النيجيرية، إلى صحراء فيكتوريا في أستراليا، حكاياته عميقة مثل نظراته وصوته الجهوري، لقد هذبته الأيام وشذبه التجارب والترحال. كان عقلية تجارية جبارة، ومثقفًا يحمل حسًّا وطنيًا يعشق الأدب والقوافي.

لم تربطني به معرفة سابقة ولا نسب قَبَلي غير العرق الصومالي النابض، ورغم ذلك أخرجني من ضيق اللحظة إلى فضاء الفرجة وسحيق التاريخ

حيث الأحاديث الأخوية، والكفاح الوطني الصومالي ضد الاحتلال، وجمالية الطبيعة، والحكم والأشعار وما أكثرها في بلادي، وحكايات مدن تحاور الإبل والمحيط، وكلها مواضيع تدغدغ مشاعري وتلامس وجداني وتمنحني لحظات من الصفاء. غريبة هي حالتنا يا معشر الصوماليين؛ في الوطن نشكل فرقًا متناحرة وقبائل متصارعة وكيانات متعاركة، لا نقبل العيش في وطن يسعنا جميعا ولا نعرف التنازلات، وفي الخارج نتقاسم اللقمة قبل البسمة ونتبوأ على أعلى الأماكن سياسيًّا وتجاريًّا وثقافيًّا!

وبعد أيام تركت رواندا وقد ارتفعتْ في وجداني وتيرة التساؤلات والثنائيات المجهدة، والفرق الهائل بين قارة غنية بمواردها ومصادرها وشعوب فقيرة تتضور جوعًا، وكنت أقارن ما بين الطبول الأفريقية ونغمها الخالد وبين بلادة النخبة الحاكمة ومكينة التغيير الأجنبية التي تطحن التراث وتدمر التقاليد لتنتج سلوكًا جديدًا يتماشى مع مزاجهم الرأسمالي وفلسفتهم المادية الهدّامة، ما بين ألم المعابر والحدود التي رسمها الاستعمار وبين طموح الأجيال الشابة المتحررة من الماضي الخانع، ما بين ضوء القمر وكثبان الرمال ورمزية الأنهار والميثولوجيا في الثقافة الأفريقية وبين التغريب الثقافي والناطحات المتدثرة بالفساد والتبعية، ما بين جناح القارة النازف وجنوبها المتطور حياتيًا ومتخلف إنسانيًا، ما بين الذهب الأسود والأصفر وجوع الإنسان، ما بين جهل الأجيال وثراء اللغة وعراقة التقاليد. الدماء المراقة في مقديشو وأشلاء الأطفال في نيجيريا، يستمد الإرهاب عنفه من مشكاة واحدة مهما تغيرت أسماؤه ومنطلقاته وفلسفته، وحتى أفكاره وأيديولوجياته المحركة، هنا حركة الشباب بدمارها وانفجاراتها وفتاوى شيوخها المكفرة للمجتمع الصومالي المسلم، ودموية داعش وتشويهها صورة الإسلام أمام العالم، وهناك بوكو حرام بتجاوزاتها الإنسانية وإرهابها وجنوحها نحو القتل

والدمار، وكذلك الإرهاب الغربي الذي قتل الملايين باسم الديمقراطية ونشر الحضارة الإمبريالية ونهب الأوطان وكذلك إرهاب الدولة التي تغتال القيم والأخلاق وتنشر الدعارة وتنكل الشباب وتزجهم في السجون التعسفية وتحرمهم من الحقوق الأساسية.

وبعد أن غادرت منطقة البحيرات العظمي الأفريقية وفي مطار بلد عربي دار هذا الحوار بيني وبين شاب كونغولي يدعي باتريك من مدينة "غوما" سألته لماذا تهتمون بالمصلحة الخاصة على المصلحة العامة؟ بيوتكم فاخرة من الخارج، وسياراتكم فارهة وملابسكم غالية، وأرصدتكم البنكية مكدسة بالمال، الخوف منتشر والحروب تغتال الأمل وتفكك النسيج الاجتماعي، والأمراض الفتاكة تجتاح بلادكم وآخرها أيبولا، شوارعكم عبارة عن تراب وأحجار وحفر غائرة وبالوعات، روائح كريهة وغبار ووجوه تعلوها الكآبة رغم امتلاكها ملايين الدولارات وثروة معدنية كبيرة، في حين أن "كسيني" الرواندية المجاورة خلابة ومنعشة، شوارع نظيفة وبنية تحتية متميزة.

فقال لي وهو يتبختر بمظهره ويضحك بخبث: كسيني: "يا رجل! هي مدينة الفقراء والمعوزين والمتسولين.. حتى الدولة الرواندية التي تحاول إرضاء الشركات العابرة للقارات تسرق ثروتنا وتصدرها للعالم. وإذا كنت كاتبًا وجيولوجيًّا كما ذكرت وملمًّا بالتقارير الأممية راجع تقرير الدبلوماسي الأفريقي الراحل كوفي عنان (١٩٣٨ – ٢٠١٨م) في بداية الألفية الثالثة والمحاولة المستميتة والمقززة لبعض الدول الأفريقية لسيطرة المعادن الكونغولية وخاصة المعادن الأساسية للاقتصاد والتكنولوجيا العالمية؛ الكولتان، والماس، والنحاس، والكوبالت، والذهب، ولا أتحدث عن أهميتها الاقتصادية وندرتها

العالمية لكونك جيولوجي يعرف خبايا المعادن. ومن نافلة القول الحديث عن الدور الغربي وخاصة الدول الأوروبية حول هذا النهب الشرس لثروتنا.

في رواندا ديكتاتور بثوب وطني وفاقةٌ يجمِّلها مكياج الرأسمالية. لديّ الملايين من الدولارات ولي نمطي الخاص في الحياة ولست مجبرًا على أن أعيش مثلهم وكما يريد العالم من حولي فالتجارب لا تستنسخ. الفقير ينظف الشوارع ببطن فارغ، ويبني الحانات والبارات ينتظر قدوم البيض وسائح يملك بعض المال، وأنا لا أنتظر أحدًا، ثروتي بيدي أستمتع بها بعيدا عن قوانين الدولة وإرضاء المنظمات الغربية وتشجير مدينة غارقة بالفقر.

الأهم هو المال والحياة الشخصية يا صديقي كن إيجابيا وعش حياتك بحرية فهي قصيرة". وبعد نظرة عميقة تحمل دهشة غامضة سألني: أنت وريا (Waryaa) أليس كذلك؟ - أفريقيًّا وربما عالميًّا وريا تعني صومالي - فقلت نعم، فذهب وتوارى في الأمواج البشرية يلوح يده ويضحك بعمق، وهو يتمتم: أنتم بارعون في التجارة فاشلون في السلام ومهووسون بالترحال.. لا تمثل دور المسالم الوديع فنحن في نفس السفينة يا صديقي إما أن نغرق ويكون الوطن مشاعًا وتتحقق مخاوفك أو ننجو ومعنا الثروة والمال ونقود أفريقيا وينجح حدسي.. والخيار الثاني هو الأقرب يا "وَرياْ.. والسلام". لقد كان بارعًا في سرد الأفكار وترتيب المعلومات رغم أنه كان هادئ الملامح غامض البسمات.

وأخيرًا ورغم جمالية رواندا وريادتها في مجال العودة من الحروب إلى الأمن وهي بالفعل من أصعب الأشياء في أفريقيا إلا أن صدمة العنف ما زالت شديدة والروايات الشفهية المتداولة ما زالت تحمل كثيرا من المرارة حيث مخزن المآسي ومراقد الأبرياء الذين أبادتهم الهمجية المتوحشة يحفظ قصصًا تقطع

نياط القلوب، والنقطة التي تحتاج إلى التنويه وربما الخوف هو أن الفقر المدقع وخلافًا للإعلام الذي يصور رواندا وكأنها جنة واعدة منتشر في بلد يعاني من قبضة حديدية لرجل ساهم كثيرا في إنقاذها وانتشالها من حمأة الحروب الأهلية، ولكن إطالة أمد الحكم والنظرة السائدة التي ترتكز على عدم وجود قائد رواندي يحمل كريزما وشخصية كاغامي تعني ضمنيا أن المجتمع قاصر والوحيد الناضج هو بول وهذه مسحة جنينية لديكتاتورية تتشكل بعيدا عن أنظار العالم.

ما يؤسفني حقًا هو أن بعد سنوات من المساواة والعدالة الاجتماعية رواندا تقترب تدريجيا نحو الشمولية وسلب الإرادة! من وراء السمرة الحالمة لفتيات "كيجالي" كنت أرى جنين الاستبداد يتشكل في خيال رئيسهن الذي لجأ إلى تعديل الدستور والتلاعب به من أجل تمديد فترته الرئاسية، وربما لاحقا سيمدد أكثر ليصبح رئيسًا مدى الحياة بخطوة انتحارية قد تقود البلاد إلى الهاوية مرة أخرى، فالرجل بعد أن أفرغ ما في جعبته من أفكار لم يعد بإمكانه مواصلة المسيرة، وبدأ رصيده يتآكل خاصة وأنه في خريف عمره.

لقد ظل النموذج الرواندي ملهمًا للأجيال الأفريقية الشابة، ولكن يبدو أن كاغامي بدأ تشويه تجربته الناجحة كعادة الأفارقة وما خبر أحمد سيكو توري عنّا ببعيد.

نحو خط الاستواء

في أيلول عام ٢٠٠١م وبالذات الأيام التي كان العالم منهمكًا في التفجيرات التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية يوم ١١ سبتمبر كنت على موعد مع سفر أصبح لاحقًا علامة فارقة في حياتي، وبات تجربة غيّرت نظرتي وكسرت روتينية العيش على الأقل في عيون مراهق كشرت الحياة له عن أنيابها في بداية حياته. كغيري من المراهقين لم يكن أمامنا ترف السفر وممارسة الهوايات في بلد يقوده أمراء الحرب ولا يعترف سوى إبراز العضلات والتنكيل بالضعفاء وحرمانهم من أبسط الحقوق كالتنقل بحرية، وممارسة الحياة دون خوف أو وجل، بل كان الخوف يلاحقنا بقوة مخيفة، وأجبرتنا الظروف إلى حشر النفوس في أضيق الزوايا عندما فرض الحرب سياجه وتأثيراته على كل بقعة من تراب الوطن مما طبع على قلوبنا عدم الوثوق بالأيام.

أرهقنا الدوام في مدارسنا المتواضعة التي يزيدها التلقين وعدم الإبداع صعوبة ونكدا، لذا كنا بحاجة ماسة إلى مثل تلك الرحلات. لم تكن الرحلة

معلنة مسبقا ناهيك عن التخطيط والتجهيزات اللازمة، بل كانت مفاجأة، وما أجمل المفاجآت السارة في بلد مثل الصومال المليء بالألم وكل الأشياء التي تغتال الحلم وتبدد الأماني وتفقد الطفولة معناها وتحولها إلى مجرد مرحلة مبهمة من مراحل الحياة العابرة! الزيارة خططها وأكمل تجهيزاتها الأستاذ محمود، وكانت البعثة مكونة ــ بالإضافة إليه ــ من الأستاذ أحمد معلمي الذي حفظت على يديه قول رب العالمين، ورفقاء العمر وزملاء الدراسة:

حسن – رحمه الله – قائدنا في الملاعب الكروية وموجهنا داخل المستطيل الأخضر، أكثرنا حيوية وأوسعنا كفًّا، مدافع من الطراز العالمي ومشاغب جريء، هوس الكرة جعلت حياته بطولة مطلقة للساحرة المستديرة، يحمل قلبًا نقيًّا ومشاعر صادقة لا تخلو من الحدّة في بعض الأحيان، ولو وجد الترشيد والعناية ووجهة تتبنى موهبته لكان مدافعًا عالميًّا يشار إليه بالبنان، بعد التخرج من المدرسة انخرط في المحاكم الإسلامية، وبعد أفول نجمهم واحتلال القوات الحبشية الغازية على معظم المدن الصومالية سافر إلى جنوب أفريقيا، وكغيره من الجالية الصومالية في بلاد مانديلا زاول مهنة التجارة في الأحياء الفقيرة والغيتوهات والضواحي البعيدة عن العواصم، وبعد أن استتب الأمن في كسمايو على أيدي القوات التابعة لمعسكر رأس كامبوني وتشكيل حكومة جوبالاند عاد إلى مدينته وكان من نواة القوات التي رسخت أقدام الاستقرار على تربة مدينة اشتهرت بالحروب والقلاقل الأمنية إلا أن اغتالته حركة الشباب الإرهابية في لغم أرضي استهدفت سيارته يناير عام ٢٠١٥م.

إبراهيم جوهرة افتقدت التوجيه الصحيح وأصبحت ضحية لأيديولوجيات متناقضة تقودها المصالح، كسر المألوف في الشجاعة أمام وطأة الحرب

والصراعات، يصلح كتيبة مشاة لوحده، قائد بالفطرة وبطل قلّ أن تجد له مثيلا في جسارته وشجاعته حتى في بطون الكتب والأسفار، لم يستفد من إمكانياته، بل ضاع في وسط ثلاثي مدمر؛ الشهرة المبكرة التي لاحقته قبل أن يشتد عوده وتنضج شخصيته، والجرأة الكبيرة في اتخاذ القرارات وتحديد المصائر، والأموال المتدفقة إلى جيوبه بشتى الطرق وهو في بداية المراهقة، وقادت هذه الترويكا إلى تلاشي اسمه والتعمق في قاع النسيان بعيدا عن الأضواء والتأثير.

محمد دهاء ونباهة وعقلية جبارة لا حد لها، كما هو سياسي لبق وإن كنا في مقتبل العمر، في الصغر لم يكن متدينًا بل كان من أبعد المراهقين للالتزام الديني وكان يتفنن حتى وهو في ريعان شبابه بالمغامرات الغرامية، وحبك قصص العشق والهوى، وكنا نغبطه لبطولاته في ميدان المرأة والمعاكسات، وبعد أن تخرجنا من ملجأ الأيتام وتفرقنا الزمن أصبح من أكثرنا تدينًا ووقارًا وعفة، ومديرًا ناجحًا لمركز إسلامي متطور ورائد.

كنا مراهقين تسعدهم الكرة وتبغضهم الأفلام الرديئة في عطلة الأسبوع، اختطفت الحروب الأهلية طفولتنا البريئة واختفت الآمال وراء معضلة القبلية في وطن ظل مأزوما منذ عقود، ذاكرتنا الطفولية كانت ملطخة بألوان من الماسي، وعيوننا كانت كاميرا تسجل الأحداث والمؤتمرات العبثية للفرقاء الصوماليين في العواصم العالمية. في خضم الصراعات وفي كنف اليتم المبكر عشنا حياة بلا طفولة ولا أبوّة، بل بلا ملامح ولا طلاء، حيث كانت المدافع تزهق الأرواح وتخطف الابتسامة، والمليشيات الجهوية والدينية تنهك الأعراض وتشوه التاريخ والدين والقيم والأخلاق، التعليم كانت رديئة أو معدومة، والصحة حدث ولا حرج، والسلام الداخلي كان في كف عفريت.

ورغم ذلك كنا نضحك ونتوغل في دروب السعادة نلعب ونمارس الحياة بشغف الطفولة وعناد الأيتام الطامعين في تغيير مجرى التاريخ نحو الأفضل، أو على الأقل المساهمة في تخفيف الأعباء عن كاهل البسطاء، كنا ننافس بل نتغلب على أطفال الحي الذين كانوا يتلقون دعم الأب وحمايته، في المدارس كنا الصفوة، وفي المستطيل الأخضر كنا نرهق المنافس بسيمفونية كروية وحماسة منقطعة النظير.

كان في بالنا أننا سنتغلب على الصعاب، ونستمتع بغد أفضل طال انتظاره بسبب غباء المسؤولين وغياب زعماء يحملون كاريزما القيادة والتأثير على الآخرين، بتنا ندور في المربع الأول وتراجع بصيص الأمل الذي لاح في الأفق القريب بعد ظهور المحاكم الإسلامية الذين اعتقدنا في غمرة الهلوسة أنهم المنقذون الحقيقيون لبلدنا، كانوا الوجه الآخر لعملة التيه فكدنا نفقد الأمل وابتعدنا كثيرا عن مسارح طفولتنا وميادين حداثتنا هربًا من الحركات الإجرامية والجهل الذي أطبق أطنابه على الجميع، تفرقنا وذهبنا إلى أرجاء العالم بحثا عن حياة أفضل فقدناها في بلادنا، كانت تجربة جريئة وماتعة.

تحركنا في الصباح الباكر ونسائم الصبا تنعش الأبدان وتحمل إلينا عبق الطبيعة ورذاذ المطر المتساقط في تلك البقعة الوادعة بهدوء على جنبات خط الاستواء الذي يفصل قرية بارْسَنْغُونِي إلى شطرين كل شطر آية في الجمال وروعة في الأناقة. الرحلة نحو خط الاستواء ورفقة الأصدقاء جعلت السفر تحفة رائعة من النكت والأحاديث الجانبية، مررنا على جميع المدن والقرى الرابضة على طول النهر في منطقة غُوشا؛ وهي منطقة شاسعة تحاذي نهر جوبا. ولم يخلُ السفر عن معرفة العباد ومراقبة الحياة عن كثب، وما أصعب الحياة في ظل الفوضى! أصبحت الأجساد هياكل تتحرك بسبب الحروب، وعيون

الأطفال غارقة في الحزن والأسى. الضحكة الهستيرية للطفولة والدموع المتساقطة وهي تئن ونصف الرغيف المقسوم بين الأشقاء أذكى في نفسي أشجانًا أبت أن تتصالح مع وجداني الجريح.

على مشارف غابات أمازونية وغير بعيدة عن المجسم الرابض في قلب خط الاستواء، والذي كان السياح قديمًا يتدفقون نحوه لالتقاط الصور وتخليد الذكرى أثارت شجون مسنّ كان مديرًا للمشاريع الإنمائية في المنطقة فراح يصف رمزية المكان وأهميته السياحية وبعد نفس عميق أجهش بالبكاء؛ قال ومرارة الوضع عقدت لسانه: المجسم المنسي حاليا يرمز إلى الحلم الصومالي المدمر ونهاية دولة ممتدة من المحيط إلى الهضاب حملها الصوماليون سنينًا طويلة في خيالهم، كما يعني أفول نجم السياحة والعظمة الصومالية التي لا تقبل الضيم ومساومة العدو في شبر من ترابنا. على مدى قرون كان الصوماليون يعيشون في وطن شاسع يشبه تفاصيل حياتهم وسمرة ملامحهم وأدبهم، مناخه يحدد حياتهم وترحالهم، كما كانت مجموعة من العوامل الدينية والثقافية والفكرية والأعراف المجتمعية تحدد حروبهم، والاعتماد على الأخوة الصومالية المرتبطة بالإسلام جعلت الصوماليين العنصر الأقوى في المنطقة قبل وصول المحتل الذي غير القوى ومكنّ القوميات الأخرى من السيطرة على ربوع القرن الأفريقي.

وصل الأوروبيون إلى المنطقة وعموم أفريقيا فقادوا القارة نحو مأزق خطير، وانطلقوا عند استعمارهم لأفريقيا من مبدأ شهير ينص على أنهم "شعب الأسياد" والباقي عبيد يجب أن تحتل أرضهم وتغتصب تاريخهم وتنتهك كرامتهم وتشوه حضارتهم، وكانوا يخبروننا أن أوروبا تنقلنا من عالم السحر والشعوذة والأوهام إلى عالم تسود فيه الحضارة ويقترب فيه الأفريقي

إلى الإنسانية الكاملة يفكر وينتج ويساهم في العملية الثقافية والأدبية والفكرية، وتناس الرجل الأبيض أن أفريقيا كانت رائدة حضاريًّا وثقافيًّا قبل غزوه وأن سرديته تافهة بقدر ما هي مقززة ومبنية على شوفينية فارغة المحتوى، وفيها كميات مقرفة من التشويه وتحريف التاريخ بنحو يتطلب جهدًا أفريقيًّا كبيرًا على مستوى الشعوب والحكومات للتعرف على العالم الخارجي حضارة أفريقيا وتراثها واختراعاتها الطبية وتقدمها الهندسي وإبداعاتها الأدبية قبل الاستعمار.

على امتداد الزمان والمكان والأجيال كانت أفريقيا قارة الرومانسية والجمال والألعاب المفعمة بالطاقة والإبداع، وكان الأفارقة يعيشون بسلام مع مختلف مكوناتهم القبلية والدينية إلى أن جاء الاستعمار وطبق عليهم قاعدته الشهيرة "فرِّق تَسُدْ" مما أفسد المزاج وجعل الحياة معاناة مطلقة حيث كان الرجل الأبيض ينهب الأموال ويأخذ الثروات ونحن نعيش في عبودية وكساد اقتصادي كبيريْن أثّرا على القدرات الثقافية والفكرية والاقتصادية للقارة، ولنفهم كيف أثر الاحتلال في المسيرة الحضارية لأفريقيا وكيف كبّلت جيوشه نهضتها الصاعدة يجب أن نرجع خيالنا إلى ما قبل مئات السنين ونتخيل أفريقيا خالية من الاستعمار ولم تطأ قدم أوروبي على أرضها ولم تخضع للاحتلال الذي جعل شعوبها عبيدًا يعانون في أسواق النخاسة واقتصادها منهكًا وبعيدًا عن المنافسة! أفريقيا لم تطبق عليها النظريات الغربية ولم يجعلوها منبع ثروتهم ووقود حضارتهم، أفريقيا لم تخضع إلى استعمار كامل طال جميع النواحي الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، لدي قناعة راسخة أن القارة لو سلمت من آفة الاستعمار لكانت اليوم تنافس على القارات وتزاحم الأمم في ميادين التكنولوجيا والاقتصاد.

لقد ظلت أفريقيا طيلة عقود حقلًا للتجارب الاستعمارية ومنبعًا لثروة أوروبا وسعادتها، ولقد عبر الكيني نغوچي واثيونغو هذه في كتابه «الكُتَّاب في السياسة» حين قال: " الحديث عن الكولونيالية في أفريقيا هو الحديث عن علاقة قوة محددة بين أوروبا وأفريقيا في لحظة محددة من التاريخ. والوجه الآخر للعملة التاريخية نفسها كيف سرّعت أفريقيا نماء الرأسمالية الأوروبية بكل مراحلها الأساسية؛ من المرحلة التجارية، إذ بيع الأفارقة سلعًا إلى جانب السكر والتبغ والذهب – في عصر تجارة العبيد وعبودية المزارع، إلى مرحلة الرأسمالية الصناعية، مع التهافت اللاحق على أفريقيا والاحتلال الإقليمي المباشر – عصر الكولونيالية الكلاسيكية، إلى مرحلة الرأسمالية المالية الحالية، حيث ما يزال رأس المال الأوروبي يعقل ويتوكل في عصر الكولونيالية الجديدة، رغم حقيقة استبدال الدولة الكولونيالية بدول أفريقية مستقلة. ولذا في القرون الأربعة هذه، غدت أفريقيا جزءًا لا يتجزأ عن نماء رأسمالية العالم وتطورها، بغض النظر عن مدى اقتحام الرأسمالية الغربية للمناطق الداخلية. وازدهرت أوروبا حسب كلمات سي جيمس على أنقاض خراب القارة والاستغلال الوحشي للملايين. تفضي العملية الكلية لعلاقة القوة بين المستعمِر والمستعمَر في أفريقيا بالشكل الأوضح إلى اشتباك الاقتصاد والسياسية والثقافة والأدب.

استهدفت الكولونيالية أولًا الأرض، ما تنتجه ومن يعمل على ذلك. قد يأخذ هذا منحى الاحتلال المباشر كالأنظمة الاستيطانية في كينيا وزيمبابوي وجنوب أفريقيا حيث قاد الدولة الكولونيالية مستوطنون بيض لمستوطنين بيض. أو شكل تحكم اقتصادي سياسي خالص حيث كانت تقاد الدولة الكولونيالية بمساعدة السكان الأصليين والأفراد، كما هو الحال في نيجيريا وغانا. كان الفرق الأساسي بين النوعين الاستيطاني وغير الاستيطاني مسألة

الدرجة والنمط. واتبع كلاهما قوالب متشابهة هي السيطرة السياسية والاقتصادية. ولجعل الاحتلال الاقتصادي والسياسي كاملًا وذا أثر، حاول المستعمِر أيضا السيطرة على الوسط الثقافي، التعليم والدين واللغة والأدب والأغاني والرقصات؛ كل أشكال الممارسات التعبيرية، آملًا بهذه الطريقة السيطرة على قيم الناس ونظرتهم العالمية وبالتالي صورهم ومفاهيمهم للذات. كان هدفهم أن يحظوا بعبد قبل نفسه عبدًا لأنه لم يقدر له إلا أن يكون كذلك. والأفضل من ذلك، العبد الذي سيكون ممتنًا لسيده؛ لشهامته أن كبله لحضارة أنبل".

لقد نكأ الكاتب الجرح الأفريقي النازف، ولكن في نظري الدراما التاريخية تكمن في كيف قسم الاستعمار الأوروبي القبائل الأفريقية ورسخ في أذهانهم الطبقية المبنية على أساس العرق والحرف والمهن والملامح والثقافة، لقد استخدم الأوروبيون ضد السكان الأصليين أساليب استعمارية قذرة فجثموا على صدورهم عقودًا كانوا عبيدًا في عقر دارهم، وبعد رحيل الاستعمار أصبحت التقسيمات الاثنية والهويات التي صنعها المحتل برميل بارود شديد الخطورة، وعندما انفجر أهلك الأخضر واليابس، وفي خضم هذه المأساة أتساءل هل الأفريقيون لهم يد في احتلال أرضهم وتنكيلهم ونهب خيراتهم؟ أستطيع أن أقول نعم! لأنهم كانوا غارقين في الحروب والغيبوبة الفكرية رغم أنهم يملكون إرثًا حضاريًا وتاريخيًّا عريقًا في حين كانت أوروبا ترسم خريطة أفريقيا الجديدة، ولم يستطيعوا مقاومة الأوروبيين الذين تفوقوا عليهم بالبارود أولا واستخدام أفارقة كجنود وجواسيس وعملاء ينفذون أجنداتهم الاستعمارية ثانيا، ومن المعروف أن أوروبا وحدها مهما امتلكت من قوة السلاح والمال لم تكن تستطيع احتلال قارة كاملة، لولا معاونة أفارقة آخرين أعماهم الجشع وعقدة التبعية.

ويبدو أننا لم نتحرر من رواسب الماضي حتى بعد الاستقلال الشكلي وإلا لماذا لا نؤثر غيرنا من المجتمعات؟ ولماذا لم نستطيع إلى الآن ترسيخ هوية ثقافية أفريقية ناجحة لها ملامحها وأبعادها؟ ورغم محاولات البعض كتشينوا أتشيبي (Chinua Achebe ١٩٣٠ – ٢٠١٣)، ونغوچي واثيونغو (Ngugi wa Thiong'o ١٩٣٨ –) وغيرهم من الكتاب والمفكرين الذي ركزوا في أعمالهم على مساوئ الاحتلال وإبراز الجوانب المشرقة والخصوصية الثقافية والإرث التاريخي للشعوب الأفريقية دون أن يصلوا إلى تشكيل هوية ثقافية مستقرة إلا أنهم ما زالوا يقبعون في أعماق التبعية الثقافية والذوبان المعرفي والهوية الضائعة.

وكان الصوماليون من ضحايا الاحتلال الغربي الذي قسم أرضهم وجعلهم شعبًا ممزقًا ومتشتتًا مما غيّر المفاهيم والطموحات، وقصرت الهمم عن بلوغ المعالي فبدأنا ندافع عن هويات زائفة ونستميت من أجل الدفاع عن مصطلحات وهمية وأفكار مسمومة زرعها الحاقدون وتقسيمات باطلة صنعها الغربيون من أجل إضعاف الأمة وتشتيت ما تبقى من قوتها وصلابتها ووحدتها المجزأة أصلًا. فبعد أن كان الصوماليون يتحدثون عن أقاليمهم المحتلة من قبل الدول الأفريقية وكيف يستطيعون أن يعيدوها إلى حضن الأم باتوا ينزوون في أضيق الزوايا ويتحدثون عن مدنهم ومرابع قومهم وتلك – وربي – رِدّة سياسة ونكسة أيديولوجية وتراجع مهين أمام سطوة المحتل وجبروت قوته.

وبعد سقوط الدولة العسكرية والغوص في أعماق الوحل القبلي والمهانة تُهْنَا في متاهات تجريب المجرب وعقد المؤتمرات في منتجعات أفريقية وعربية راقية، إضافة إلى الدفاع عن مصالح الدول والهيئات الاستخباراتية التي

اخترقت شعبنا وغيرت أكثر المفاهيم رسوخًا في مخيلتنا الجمعية، ولم ندرك بعد أن الحلول الجاهزة والمفاوضات المتاهية وإلقاء اللوم على جميع الجهات والحلول النمطية باعتبار الحرب الأهلية امتدادًا طبيعيًّا لصراع القبائل الصومالية على المياه والمراعي والسيادة -لم تعد فرضية ممكنة ونظرة مقنعة، بل نحتاج إلى أن نقرأ ميثولوجيا الحروب الأهلية وما بين سطور السياسة وأطماع الدول ومفاهيم الجيبولوتيكا والخريطة الجديدة للعالم وتأثيرات الحرب على الإرهاب في مسيرة الدولة الصومالية، وتفسير الأحداث للأجيال الشابة المتعطشة لإراقة الدماء من جديد.

ومن المظاهر المؤسفة للحروب أن المثقف الصومالي سواء كان يحمل أفكارًا إسلامية ويدعو إلى تطبيق الشريعة أو علمانيا يرى فصل الدين عن الدولة كان متعرضًا لضغوطات خارجية أثرت في فكره؛ وبالتالي أداء رسالته بطريقة صومالية تفهم الواقع وتحترم الخصوصية، وهنا لا أمدح أحدًا ولا أقارن بين الأفكار بقدر ما أدعو إلى إعادة مفاهيم تقدر العادات والتقاليد وتستطيع فهم المزاج الصومالي العام. ويبدو أننا فقدنا السيطرة بين تيارين أحدهم لا يقدس إلا الغرب ولا يدين إلا بدينه! عقيدته كل ما يخالف الإسلام، ونظرته قاصرة يشوه الدين ويغتال القيم ويدعو إلى تغريب المجتمع، وآخر يطبق إسلامًا لا يشبهنا أنتجته ظروف مختلفة وبيئة مغايرة وأخذ فتاوى لا تنطبق مع نمط حياتنا وتقاليدنا المرتكزة على الإسلام الذي كنا نعرفه ونعتنقه منذ صدر الإسلام، وإزاء انعدام رؤية ثالثة لها سيطرتها الفكرية وبين خطين مستقيمين لا يلتقيان أبدًا نشأ جيل عنيف غريب الأطوار لا ينتمي إلى الأمة الصومالية ثقافة وفكرًا، أحدهم يرى أنها ساذجة ومتخلفة وجاهلة، والآخر يرى أنها كافرة مرتدة عن الملة وبعيدة عن الإسلام!

هدير الرعد كان شديدًا في تلك الأمسية المحفوفة بالجمال وكأنه أعنف أنواع الأسلحة، والبرق الذي منح الطبيعة بحرًا من الابتسامات العذبة كان يشبه فلاش عدسات المصورين وهو ينير الأرض كالمسابيح الكهربائية، جلسنا أمام الحقول المزهرة نتحدث عن الآثار السلبية للحروب والوضع القاتم في البلد، الأجواء الغائمة والأقواس القزحية رسمت ابتسامة عذبة تطفو على الملامح السمراء، الأوراق المبللة بالمطر تبعث أصواتًا تشوش العاطفة وزاد الربيع للأشجار ألقا وسموقا، ومعرفة المدن والاختلاط بأهل القرى ومعرفة حوائجهم وتمنياتهم إضافة إلى مراقبة عنفوان الطبيعة أضافت لسفرنا متعة فاقت كل التصورات. في أعماق مناطق قبائل جَرير أو صومالي بانتو (Somali Bantu) طال بنا الحديث وتشعب وطرقنا كل الأبواب ولابد أن العرق الصومالي وأصله كان من بين المواضيع التي كنا نناقشها حول مائدة الغذاء في مطعم مائل نحو المياه كأنه يقبل النهر أو يعانق الأعشاب المحيطة به، في الزاوية البعيدة كان يجلس مدير المدرسة الوحيدة في القرى المجاورة للنهر، كان فيضًا من المعرفة والثقافة والإنسانية، ولابد أنه كان يعاني كغيره من التمييز العرقي واللفظي والسياسي والنظرة العنصرية في كثير من الأحيان.

كان يقرأ كتابًا عن الرسم وعباقرته عبر التاريخ، كان الكتاب البارز بين يدي جيلاني الأربعيني النحيف الذي يخفي وراء سمرته النبيلة ذكريات أربع عقود من الظلم المجتمعي قديمًا ومترهلًا ومطليا بالطين والعَرَق، كان "المعلم" كما يطلق عليه صبيان الحي شديد الإعجاب ببيكاسو وفان جوخ كما كان يحاول تقليدهما. الفنان الإسباني الذي ملأ العالم بفنه وعبقريته الفذة في التكعيبات أدهش الأستاذ منذ الصغر. رسم جيلاني على وجهه ابتسامة خانقة وهو يراقب بتلذذ غريب أعمال الفترة الزرقاء من حياة بابلو الغنية بصور مشبعة بالحرية والهيمنة، فجيلاني وإن كان باسمًا يحب المرح ويفكر بعمق إلا أنه

كان يعاني من اكتئاب حاد لم يفارق فؤاده طيلة سنوات، كما ظلّ اللون الأزرق هو المفضل لديه منذ أن كان يافعًا يراقب اتساع السماء ولونها الصافي في الأمسيات المبللة بمرح الطفولة في قريته "بارسنغوني". أما فان جوخ الموهبة الفذة التي لا تكرر في الرسم والفن التشكيلي فعلاقته كانت غامضة وباهتة، وربما كانت الأمراض النفسية تلعب دورها. وكان لا يهتم أيهما أعمق فهمًا وأكثر إبداعًا وأجمل إيحاء فالرسامون في النهاية بشر متفاوتون في رسم السعادة وتخليد الأشجان، ومختلفون في إدراك الجمال وتذوق النصوص وتفسير الواقع ويوجد من بينهم مجانين ومرضى نفسيين حولوا آهاتهم إلى لوحات فنية تنضح بالإبداع.

لم يكن جيلاني رسامًا اغتالت الحروب الأهلية أحلامه فحسب، بل كان بارعًا في تحليل السرديات التاريخية والمفاهيم المجتمعية الراسخة في الوجدان رغم أنها لا ترتكز إلى حجج قوية ولا إلى أدلة دامغة. وبعد حديث ودّي ونحن نخرج عن القرية همس في أذني: "رغم أن سردية بعض القبائل التي تتحدث عن انتمائهم إلى أجداد وبطون عربية هاجرت من الجزيرة العربية إلى الساحل الصومالي ولوثت نقاءها العربي بالاندماج إلى السكان المحليين إلا أن العرق الصومالي الموحد ظل رابطًا قويًّا قاوم وتغلب على كثير من الافتراضات الأسطورية. لا ننكر وجود قبائل عربية أصيلة من اليمن وعمان وحتى مصر وبلاد الشام إضافة إلى فارسيين سكنوا الصومال وأثروا على التركيبة السكانية وتأثروا بها أيضا ولكن الجزم بأن قبائل صومالية معينة تنتمي إلى العروبة تحيطها شكوك وتحتاج إلى براهين دامغة أكثر قوة ووضوحًا من السرديات السائدة.

الافتراضات هذه لا تنبع من رؤية علمية وحقيقة تاريخية، بل هي حكايات متجذرة في اللاوعي الجمعي لكثير من القبائل الصومالية التي تدعي العروبة دون أن تقدم دليلًا واضحًا، والهوية الإسلامية تساهم في رأيي تبني الصوماليين على العروبة، فالإسلام يشكل الأساس المتين للقومية الصومالية وظل من أهم مرتكزاتها ووقود مسيرتها ونضالها، وكان الإسلام دائمًا إطارًا يحدد حياة الصوماليين في مختلف أجيالهم ومنذ أن وصل إلى بلاد السمالة كانوا يحملون رايته وينشرونه بين الأمم، ولا غرو فالعقيدة التي تغلغلت في عمق الشخصية الصومالية وثقافتها إضافة إلى التفاخر بالأنساب الشائعة بينهم جعل معظمهم ينتسبون إلى العرب وإلى قريش بالتحديد.

وبقراءة الماضي بشيء من الإلمام والتجرد ندرك أصلنا وفصلنا، ونستطيع أن نستعين على الأبحاث المتوفرة والدراسات الاثنية الموجودة في المحافل العالمية. لقد خضعت سرديات الانتماء وبنية الأمة والثقافة ومفهوم القومية والانتساب إلى عرق مجهول ورابطة الهوية لكثيرٍ من البحوث والدراسات في حقول الاجتماع والإنثربولوجيا وعموم دراسات ما بعد الاستعمار، بعد ظهور القومية الحديثة في العصر الكولونيالي. وحسب الباحث الهندي علي بابا منظِّر فكرة ما بعد الحداثة فالمكونات الثقافية واللغة والرابط الوجداني يشكل عوامل تعطي القومية دفعة نحو التميز وقابلية للحياة. ولذا فالصوماليون – في نظري – ... " وقبل أن ينهي كلامه كانت السيارة أسرعت نحو الشمال والمناطق المجاورة، وبعد سكون أعقبه تصور المآلات الممكنة والتفكير حول النهاية المتوقعة من كلام "المعلم" حاول أحد الرفقة أن ينهي المونولوج بطريقته الخاصة حين قال: "الصوماليون أمة بين أمتين، وقومية مستقلة لها ملامحها الثقافية والعرقية والتاريخية". قد تكون نهاية توافق أو تختلف عن

نظرية جيلاني، ولكن ودّعته بصمت وغادرت القرى قبل أن أعرف إجابته وما زال الصراع الوجودي يضطرم في وجداني.

لم تكن الأجواء المحملة بالسحب العابرة أقلّ جمالًا من الطبيعة والحوار الثقافي الذي يعتبر غير مألوف في تلك المنطقة المشهورة بارتفاع نسبة الأمية فيها، بل كانت تضيف أناقة في سفرنا رغم صعوبة المرحلة وقلة الحيل المؤدية إلى انتهاء الليالي الكالحة في مدن وتلال يستحق الحب، وشعب يعيش فوق بحر من الثروات ووطن معطاء ومليء بالخيرات الظاهرة والباطنة. الحياة الهادئة والأبنية المتراصة بشكل هندسي عجيب والأرواح المتسقة مع ألق المكان تدعو إلى التأمل، وعبثًا حاولنا مقاومة الانبهار بلا جدوى بل وقعنا في فخ التعلق بالقرى التي استقبلتنا بدفء الأمومة. على طول الطريق كانت الرياح المحملة بأريج الزهور الممزوجة بالمخاوف ورائحة الفلاحين تقابلنا ولا تنفك عنا، ولا يقطع سكون الحياة سوى هديل الحمام والألحان الحماسية للمزارعين وأناشيد الرعاة، وهدير الشاحنات المحملة بالفواكه والخضروات إلى كسمايو.

كان معظم الطريق معبدا ولم نر ما يعكر صفو الرحلة حتى وصلنا إلى قرية كَمْسُوما على بعد ٩٠ كم شمال كسمايو، وهنا امتزج قبح الحروب مع جمال الكون، والروح الشفافة للشعب مع الوجوه السوداء للموريان، وتحولت الحدائق إلى ثكنات للعصابة التي تدير المنطقة بالقوة والتي وضعت الشعب البائس فوق صفيح ساخن يحترق كل من سولت نفسه السعي إلى تغيير الواقع أو مجرد التفكير في مستقبل أفضل وغد أجمل. الذئاب البشرية يمضغون القات بشراهة ويصوبون فوهة البندقية للمارة بلا ضمير وبعيون جاحظة حمراء ومخيفة كقنابل ملغومة. العصابات الإجرامية أو (الموريان) في المصطلح المحلي كانت مصطفة في الدروب الممتدة والطرقات المتقاطعة تحت المروج. الشعب يقاسي

الجوع والخوف والامتداد الكريه لسنوات الحروب والشقاء، وتعيش القلة المتنفذة ترفًا يترك في النفس رنات من التوجع. حزن عميق ودموع متثاقلة ومشاعر مكبوتة وكراسي بالية وفناجين غارقة في القات ومسحة حزن تعلو الجبين، وابتسامات خبيثة تبدي أسنان مختبئة خلف فم كريه، إنهم يحملون أسلحة فتاكة وقلوبًا متحجرة.

كان الجسر الوحيد في المنطقة منهارًا بالكامل بعد أن نسفه عام ١٩٩٨م زعيم قبيلة وفصيل مسلح خوفًا من المليشيات القبلية القادمة ما وراء نهر جوبا وبالذات مقديشو التي كانت في حينها مركزًا لأكثر المليشيات الصومالية تسليحا وأقواهم اقتصادًا وأبطشهم يدًا، ولا يوجد طريقة للعبور من النهر سوى استئجار قوارب صغيرة تقل البشر والبضائع إلى الضفة الأخرى بمقابل بضع شلنات، عبرنا النهر وعين الله ترعانا، ولم نستطع مراقبة نغمات النهر ولا انسياب المياه نحو الجنوب لتلتقي في نهايته مع المحيط الهندي، بل كان الخوف هو المسيطر في رحلة نهرية قصيرة ومخيفة.

واصلنا سيرنا نحو الهدف؛ ومساء وصلنا مدينة جِلب أعرق مدن إقليم جوبا الوسطى وأجملها، والتي كانت مقرًّا للسلطة أيام الحكومة المركزية الصومالية، واليوم هي عاصمة حركة الشباب الإرهابية، ما أشقى مدينة جلب وهي تتحمل وزر هذه المافيا العابرة للقارات والتي تضم في صفوفها قتلة مأجورين، ومجرمين دوليين، وهاربين عن العدالة، وجهلاء لا يعرفون عن الإسلام إلا اسمه، ومرتزقة وسماسرة، وسذج يقتلون أنفسهم دون أن يعرفوا مصيرهم أو مغزى موتهم كما لم يعرفوا قط مغزى حياتهم وهدفهم من الدنيا! ورغم أن "بؤالي" هي عاصمة إقليم جوبا الوسطى، ولكن وباعتبارات لا

نعرفها كانت "جلب" مركز السياسة والاقتصاد والثقل في هذا الإقليم البعيد عن التنمية طيلة سنوات الحكمين العسكري والمدني على الصومال.

بتنا ليلتنا في أحضان تلك المدينة الناعسة على ضفاف نهر جوبا. كانت المدينة تحمل حسًّا شاعريًّا غريبًا بالنسبة لي ومشاعر إنسانية صادقة تفك النفس من قيودها، وزاد شجني أغنية عميقة ومفعمة بالمشاعر سمعتها في سكينة الليل تصدح في الحقول المجاورة، وعلى وقع أوتارها الكلاسيكية غصت في بحر من الأثير ورمال من الذكريات العذبة. كنت سارحًا مع العملاق حسن آدم سمتر المولود عام ١٩٥٣ في مدينة دِينْسُورْ والذي يعتبر من عمالقة الطرب وأرباب الفن.

بدأ العندليب حياته الفنية صغيرًا عندما اجتاز جميع الاختبارات وحملته أغنيته الشهيرة "مثل غيمة المطر" إلى الشهرة وهزت جنبات المسرح، وأعجب الجماهير هذا الصوت الطري والإمكانيات الهائلة للفنان الشاب الذي شقّ طريقه وسط الفن بسرعة الضوء، وبعد فترة وجيزة ترقّى في السلك الغنائي حتى تربع فوق هامته، وأصبح علمًا من أعلام الفن، وعشقه الجميع بسبب تفرده وطريقة أدائه والكم الهائل من الأغاني والكلاسيكيات الخالدة.

حسن آدم سمتر أو حسن باشا أسّس مدرسته الخاصة في الغناء والطرب ومنح للمسرح الصومالي نبضًا قويًّا وتدفقت بسببه الحيوية في شرايينه، وفي حياته الحافلة بالإنجازات الفنية ترك بصمات واضحة على تاريخ الفن، ويعتبر أكثر فنان صومالي تسجيلا للأغاني حيث ألبوماته وكلياته الغنائية فاقت المئات ما بين الأغاني القصيرة والطويلة والرومانسية والوطنية. ولقد جادت حنجرة الفنان المبدع بأعذب الأغاني والمشاعر الرومانسية حيث قرن اسمه في داخل الفن الصومالي بالمتعة، ومن منا لا يعرف أغنيته بَلَدْوَين التي أصبحت

أشهر أغنية صومالية على الإطلاق، ويبدو الفنان في هذه الأغنية كما لو كان ينظر إلى مآلات الأشياء، وأن هذه الأغنية هي التي ستخلد اسمه حينما كان التصفيق سيد الموقف وهام القلب لأدائه الرائع وحبال صوته الندي، وتعبت الأجسام من التمايل والطرب، وفي وسط حضور مذهل من عشاقه ودون رجفة الخوف نثر على المسرح كلمات تعبر عن قصة حقيقية محزنة ماتت بين كاكي الجيش ونياشين العساكر وبين عناد وتغنج الأنثى الصومالية.

لقد أفاضت أغنية بَلَدْوينْ دموع العشق العالقة على الجفون، وشغر المحبون أفواههم للأغنية وكلماتها التي تحمل لهيب الشوق وجمرات الشجن، وحينما وصلت الأحداث الدراماتيكية للأغنية إلى منتهاها بطريقة تراجيدية غريبة تنهد الجميع وتأسفوا على الحظ السيئ للفنان، وجحْد النقيب الذي أمر العاشق بالرحيل ومغادرة المدينة، ونتذكر كيف كان يتمايل ويصدح وهو يصف شعر الحبيبة المتدلي على ظهرها والقرى المتناثرة على السهول في جو ربيعي مميز، وصعود الجبال والأشجار، وكيف أن توسلاته لم تشفع له كما أن دعاءه على عربات الجيش بالتعطل لم تكن مقبولة، حيث غادرت الكتيبة في الصباح الباكر وهو ينظر إلى الحي القريب من الجسر التي كانت الحبيبة تسكن عنده.

ومن الأغاني التي أبدعها هذا الصوت المتفرد أغنية سيلو التي فازت بالمرتبة الأولى في مسابقة وزارة الثقافة والتوعية للجمهورية الصومالية في بداية الثمانينيات كما أخبرنا أستاذ اللغة الصومالية في الثانوية العامة، وكذلك تعتبر أغنية " الفراشة المخططة" عنقود الذهب لأغانيه الكلاسيكية. ورغم الترحال وتقادم العمر ما زال الفنان يواصل رحلته الفنية في منفاه ومن أشهر أغانيه: النعامة، عين بيدوا، إشراقة الشمس، ١٩٧٢م، آمنه، الطوفان وغيرهم.

قطعت التفكير والرحلة مع فنان العصر وتعمقت في المدينة التي لم تكن كما توقعت مدينة موغلة في البدائية، بل كانت مدينة ملتحفة بالحيوية وذات طراز فريد، جدرانها شاهدة بعظمة البناء وتاريخها ينبئ عن عراقتها وقدمها في التاريخ الحديث للمدن الصومالية. خرجت بجولة تفقدية للمدينة وعرفت عن كثب معالمها وأشهر أحيائها، وبصدفة محضة التقيت رجلًا طويل القامة كث الشعر بريق عيونه يحكي قصة لرجل عصامي عاصر في صدر حياته جمالية الدولة ورافق الحماسة الملتهبة التي اجتاحت الصوماليين سنة ستين الميلادية حينما هبت رياح الاستقلال لإيجاد دولة صومالية موحدة في كامل أراضيها التاريخية، وفي خريف عمره المديد شهد انتهاكات يندى لها الجبين.

تجولت معه في المدينة وذهبت إلى مزرعته التي احتفظ بها رغم تقلبات الوضع كون المدينة الممر الرئيس للقوات الغازية إلى كسمايو أو القوات المنهزمة منها على السواء! وحضرت معه صالة للأفلام تعرض فيلمًا هنديًّا ببطولة شاه روخان وكاجول، وغادرت منها إلى الشرق الجغرافي وفي كاهلي حلم العودة إليها، وفي ذكر مدينة جلب وتلك الزيارة أتذكر هذه القصة الملهمة حيث كنت مع أحد المرافقين المسنين - ولابد أنني أهابه وأحترمه وللمسن مكانته وجلالته عند جميع المجتمعات - وفي طريقنا إلى إحدى القرى رأى من بعيد طفلة منسدلة الشعر وئيدة المشية وغارقة بضحك طفولي لذيذ، دمعت عيناه واتسعتا على أشدهما، وطغت لوعة الفراق على جبينه فحوّلته إلى كتلة ملتهبة من الذكريات الموجعة! سألني وهو ينظر إلى طفلة أثارت ابتسامتها السحرية مكامن الشوق في نفسه حتى وهو تجاوز العقد السادس من عمره: هل تذكرك ابتسامتها بشيء؟

فقلت والدهشة تلاحقني يا..

لم ينتظر مني الإجابة بل أكمل حديثه قائلًا وبصوت مبحوح تخنقه عبرات الأسى "إنها انعكاس مبهر لفتاة أحببتها منذ أن كنا مراهقين تأسرنا الابتسامة الفاتنة، والنظرة الخاطفة، وتغرينا التضاريس الضاربة في جسد الأنثى الصومالية، كنا في الثانوية العامة في وقت الطليان، وكانت قبل عقود حين كنت طالبًا معدمًا لا يملك من مقومات الحياة سوى الأمل، ومن يكترث بأمل الفقراء وأحلامهم؟ إنها تحمل ملامح حبيبتي إكرام، ابتسامتها الخجولة، براءتها العذبة، ضفائرها المتدلية، سلاحها الفتاك عيونها وحواجبها وقسماتها الدقيقة، أما المشية فتلك قصة أخرى لا أستطيع أن أرويها! يا حسن .. لقد أصبحت حياتي من بعدها "مخملية ضائعة بين حبيبة مفقودة وزوجة نكدية مظلومة" حياة بدون روح، ولا ملامح ولا نكهة، ببساطة "حياة بلا إنتاج ". ذبنا في أعماق المزارع والمسن يطأطئ الرأس والحزن يلفه، وتعجبنا عن حب لا يزول ولا ينسى! ولقد استبدت بنا الدهشة عندما علمنا أن إكرام التي ماتت قبل عقود وهي في منتصف العقد الخامس هي جدة هذه الطفلة البريئة! في رأي فارح غَمادِيدْ كانت إكرام من النوع الأول حسب الناقد والروائي الفرنسي أنريه دي بلزاك (Honore de Balzac) رائد الأدب الفرنسي ومن مؤسسي تيار الواقعية في الأدب الأوروبي الذي قال: "النساء في دولة الحب ثلاثة: امرأة تحب بعقلها.. وهي امرأة لا تحب ولا تعرف الحب، وامرأة تحب بروحها.. وهي امرأة تسعدها الكلمة وتشقيها الكلمة، وامرأة تحب بجسدها.. فادعوا لها لأنها سرعان ما تجعل حياتها رمادًا".

رحم الله العشاق ما أجمل خيالهم، وألين قلوبهم، وأرق أفئدتهم، وأعذب ذكرياتهم!

الصومال الكبير

في الماضي كان الحنين إلى الأوطان والتغني بأمجاده من سمات المغتربين الذين طوّحهم الزمن إلى بلاد بعيدة، أما اليوم نمارس الحنين ونحن في عقر دارنا، ويذيبنا الشوق ونحن في أوطان كانت بالأمس القريب ملكًا لنا نترنم بحبها، وننظم القصائد لجمالها، ونضحي من أجلها، وقد آلت اليوم سياسيًّا إلى غير سكانها، وأصبحتْ في أيدي الغريب رغم أننا ما زلنا نعيش فوق تربتها نرعي الإبل، ونسرح الأبقار، وننظم الأشعار، ونطلق ضحكات صافية موغلة في وجنات الصومالي المرح بطبعه.

كنت أعتقد في صغري وأنا أختلس السمع وأصغى مساء إلى أحاديث الجدّات الطاعنات، وثرثرة النسوان، وسرديات الخالات في فناء بيتنا أن بلدي يمتد من تخوم مدينة مِينْجي في بلاد مُكامبا (Mukamba) وتحديدًا يبدأ جنوبًا من مدينة "أُوكَاسِي" المجاورة لنهر "تانا"، ليمتد شمالا حتى يصل إلى جبال "دميرا" في تخوم إرتريا، ومن رمال المحيط شرقًا إلى هضاب الحبشة غربًا. وعندما كبرت وواجهت الحقيقة وانتهت البراءة، كانت الصدمة! فبلادي لا

تتجاوز ثلث ما كنت أحلم به، وأن الثلث نفسه في طريقه إلى التجزئة! أحلامي تلاشت على وقع الكيد السياسي، وأصبح وطني الكبير ما بين أقاليم ترزح تحت الاحتلال الأفريقي، وأقاليم مستقلة شكلًا ومستعمرة مضمونًا. تكثر الجروح في جسدي.. وفي وسط أحلام معلقة تتحول الهمسات إلى صوت مسوع، فأتجاوز على غير المعهود حدود الواقع إلى سحيق الزمن، وتعذبني صفحات التاريخ الضائعة لأمة كانت تصول على ذرى التلال وهامات الهضاب، وتتنسم شذا الهواء بعظمة الراعي وجسارة المحارب، أمة كانت تجول وتسيطر على شواطئ شرق أفريقيا تمرح إبلها في الفضاء الرحب دون خوف أو رهبة، وكانت تحمل لواء الفكر والأدب والحضارة، وتملك تاريخًا مرصعًا بالملاحم والبطولات جعلت نفسها وبإرادتها أضحوكة العالم!

ألم الذكريات شكّل صدى يتموج في خاطري، فبدأت أردد شعر نزار قباني "هوامش على دفتر النكسة" لقد تبحر الشاعر أمواجا لا ضفاف لها من الحزن وجلد الذات، وتعذّب وهو يرى كيف سقطت العزة العربية، وكيف انهارت المروءة والشهامة، أما أنا فأتألم وأتقلب أحيانا على فراشي، وأحيانا على صفحة وطن مزقته الحروب، وقسمته الدول الاستعمارية إلى أقاليم تابعة لدول غريبة لا تجمعه معهم روابط الدم، ولا علاقة النسب، ولا أفق التاريخ والوجدان المشترك. أقف على ناصية الليل وعبثا أحاول التعايش مع ألوان النكسة دون أن أنظم القصائد، ولا أطلق عنان التفكير، أو أبوح بما يجول في خاطري! كيف أستطيع أن أعيش هانئًا وأنا طريد تحطمت أحلام عمره بين الخوف من المجهول والترقب لمالات وطن عاش حبه في دمي ولحمي وحروف لغتي وتعابير وجهي وسمرة ملامحي؟ إنني لا أملك حق الدخول إلى وطني والعودة إلى مسقط رأسي دون تأشيرة العبور! وإن أردت أن أدخل بسلام إلى داخل مدن أجدادي ومسارح آبائي دون المرور إلى السلطات المحتلة، عليّ أن أتحاشى

عيون الشرطة، وأتهرب من الاعتقالات أو الاغتيالات، وسطوة حماة الحدود، أو أن أقفز فوق الأسلاك الشائكة والسياج المكهرب، إنها مأساة بكل المقاييس أن أكابد المشقة والخطر لأعود إلى وطني.

في ظلمة الفجر وفي خبايا الأمنيات القديمة يذكرني التمزق الجغرافي الذي أصاب وطني المقولة الشهيرة "التاريخ جغرافية متحركة". الأحداث التاريخية تتحرك في داخل أحاسيسي، والأطلال الساكنة في الذاكرة تسبب غصّة لشخصيتي النضالية التي تحمل في جيناتها أنفة الأجداد، والانتماء لخريطة تشمل جل المدن العامرة في القرن الأفريقي. الأجداد والأجيال السابقة الذين غيبهم الموت قبل المأساة التي حلت على الصوماليين بعد الحرب العالمية الثانية نائمون تحت الأرض ويتوسدون ترابها وقد تكون في مخيلتهم البرزخية أن بلاد الصومال تعني القرن الأفريقي كله! وباستطاعة راعي الإبل أن يبيت في مدينة جَوْهَرْ صافي المزاج يتمايل على وقع أغاني الرعاة، وفي باله قطيع من الإبل تركها عند خاله في مدينة "وَجِيرْ" قبل شهرين، وأن يطالع الأفق المدهش على مشارف "زيلع" في نهاية الأسبوع، ليشرب شاي العتمة في نهاية الشهر عند بئر "دُولُّو" التاريخي، ولا يستطيع من تجمد في المراقد قبل عدة قرون أن يدرك أن السهول التي كانت مسرحًا لألعابهم، والأفنية الدافئة لأمسيات السمر والأدب لم تعد تنتمي إلى أحفادهم، وأن الجبال والروابي التي كانوا يقفون على هاماتها في الأصيل تغيرت ملامحها وأسماؤها وتبدلت أوضاعها، وأن الأحفاد لم يستطيعوا أن يكونوا من طينة الآباء العظام الذين صنعوا جغرافية الصومال بسنان رماحهم وصليل سيوفهم، وصهيل فرسانهم تارة، وتعاملهم الكريم وأخلاقهم الحسنة تارة أخرى.

كانت النجوم سقفهم والتربة الغبراء فراشهم عندما سكنوا قبل آلاف السنين ما بين السهوب المحاذية للهضاب والروابي المطلة على المحيط الهندي، وقد ملأت الألبان المحالب، والألحان على طبلة أذنهم بعد أن ترسب حب الجمال والطبيعة الرعوية على وجدانهم، وشكلت عدة مِهن عصب حياتهم كتربية المواشي، والزراعة، والفروسية، والصيد، وركوب القوارب الراقصة على المياه، إنها شعار وطن امتزجت فيه الأعراق وتلاقحت الحضارات على كهوفه، واتّحد الجمال على ربوعه مع الطبيعة العذراء.

والحدود التي تفصل بين هذه الدول (كينيا، إثيوبيا، جيبوتي، والصومال) تفصل أحلام أجيال وتاريخ أمة، وتعني تزييفا للحقائق، وانفصالًا جغرافيًّا، وتبشعًا حدوديًّا، وتباينًا ديموغرافيًّا، لأنها باعدت بين أمة وأمنياتها، وطمست هويتها، وقطعت آمالها، وزوّرت تاريخها، وقامت الحدود المصطنعة بليّ عنق الحقائق، وتجاهل تام للإرادة الصومالية، وتفريط في الحقوق، وتنازل عن ميادين الأحداث، وساحات التاريخ، وإهدائها إلى أمم وشعوب لم تحلم يوما مصارعة الصوماليين ومقاومتهم ناهيك عن احتلال أوطانهم وهيمنة مقدراتهم.

في قبضة كل منا خلايا دافقة الحنين إلى مدننا القابعة ما وراء الحدود الوهمية، كم باعدت هذه الحدود بين مُسنّة كبيرة ومسارح حبها الأول، وبين كهل وذكرياته، وبين شيخ وماضيه المفعم بذكريات عاشها في كنف أمة تتحدث عن غارات تتجه نحو القبائل، وأخبار السيول والجفاف، وطبول النصر، وأنغام الحرية، وزغاريد العرائس، ومجالس الشعر، وتكايا الأدب، والعتمة قبل العشاء، وقرمزية الأصيل، وسحر الشروق. ذهب الماضي وأصبح الحاضر ذابلا داهمه الهوان من كل جانب، ويتحدث التاريخ العصري لأمّتي

عن انكماش رهيب حدث على رقعتهم الجغرافية، وانشطار أرضهم، وتفرق شملهم، وتمزق وحدتهم، وتجزئة مصيرهم، ومصادرة حرياتهم، وانتهاك حقوقهم الإنسانية بانتهاك مقدراتهم ونهب خيراتهم، ووأد أحلامهم، وتكريس التضعيف وزرع الهوان في نفوسهم مقابل مساعدات مادية ومعنوية جبارة وبناء القدرات الدفاعية والتفوق العسكري والمالي لخصومهم.

ذهب المجد وتوالت الأيام، و في عز مأساتنا لم نجد سوى أن نحلم من جديد، أن نحلم ونحن نغرد خارج السرب العالمي، أن نحلم ونحن لم نتمرس بعد أساليب القوة والدفاع وبناء القواعد الصلبة للنجاحات العسكرية والسياسية، أردنا أن نحلم ونحن في طور البناء والتشييد ففجرنا عصرًا جديدًا من النضال المسلح وكتبنا صفحة جديدة من المقاومة الشريفة والصراع مع أخطار الواقع الجديد الذي فرض علينا، ولكن ـ ومع الأسف ـ لم تتجاوز أحلامنا فوهة بندقيتنا، وطيات قصائدنا، وأشعارنا الثورية التي ترددها حناجر الثائرة في الميادين المشبعة بالتضحية.

لم نكترث تحذيرات القوى الخارجية، ومناشدات التكتلات السياسية، وصيحات الأحلاف القديمة للدول المجاورة التي نريد أن نشن عليها حربًا ضروسًا، والدول المجاورة (دول مسيحية تحارب من أجل انتشار مبادئ النصرانية وتسعى للسيطرة على المنطقة وتحويلها إلى منطقة مسيحية بامتياز، أو جعل المسيحية دين الغالبية العظمى من سكان القرن الأفريقي)، ولم نُعِرْ اهتمامًا لضعفنا الواضح وقلة التجربة والمعين، ولم نجد من يقف إلى جانبنا باعتبارات نعرفها جميعا، وبعد أن دخلنا غمار الحروب وانتصرت إرادة الشعب الصومالي المناضل على غرور المحتل وكسرنا أرنبة أنفه في سابقة كانت الأولى من نوعها في أفريقيا، التي كان الجيش الإثيوبي يصول ويجول في ربوعها بعدما

أطلق على نفسه بـ "أسد أفريقيا"، استنجد العدوّ كالعادة بأشقائه في الدين والأيديولوجيا أمثال كوبا والاتحاد السوفيتي وبعض الدول العربية كليبيا واليمن الجنوبي، ولا غرو فالتدخل المسيحي على المنطقة ليس جديدًا، بل في زمن المجاهد الكبير أحمد جري استنجد أباطرة الأحباش بقيادة الملكة هيلين المتوفية عام ١٥٢٢م مملكة البرتغال المسيحية بقيادة الملك مانويل الأول (Manuel I ١٤٦٩ – ١٥٢١م)

وبسبب القوى الخارجية التي أثرت على مجريات الحروب وحولت النصر إلى هزائم والنجاحات العسكرية إلى إخفاقات تغيرت مجريات الواقع، ووجدت إثيوبيا المحبطة انتعاشًا عسكريًّا ودبّت الروح في أوصالها، فحدث ما لم يكن في الحسبان؛ دول التحالف تمنح مهلة قصيرة للجيش الصومالي وتجبره على الانسحاب، قصف مروع بقيادة الاتحاد السوفيتي للشعب وللجيش في الخطوط الأمامية، وهزيمة مدوية اتبعها انسحاب عسكري غير منظم، وفلول الجيش المهزوم تسابق الريح، والأجساد المنهكة ينهشها الذئاب في الطرقات، وأمواجا من النازحين يهربون نحو الصومال، وأخيرا انهيار الدولة الصومالية وتلاشي النور الذي كان يبعث الطمأنينة. وبعد بداية الحرب الأهلي وانهيار المظلة الكبيرة التي كان الشعب يستظلها بدأت تتهاوى الأمنيات في قلب كل من يحمل هم الصومال الكبير، واغتالت الأيادي القوية والأطماع الخارجية مطالب الشعب قبل أن تكتمل أركانها، وتحطمت الرغبات الحقيقة على جدار الواقع.

كانت الدول المستعمرة تخاف من دولة صومالية قوية، تتمتع بجميع مقومات القيادة والنهضة، وعوامل التقدم جغرافيًّا وبشريًّا واقتصاديًّا، لكونها تقع في الممرات المهمة للتجارة العالمية، كما تطل على المحيط الهندي والبحر

الأحمر وخليج عدن، ولديها عدة أنهار جارية طوال السنة، وتتحكم بمضيق باب المندب، إضافة إلى المعادن والبترول، والثروات السمكية والحيوانية، ومقومات الزراعة، والعامل الأهم هو عامل الدين والزعامة، هذه العوامل وأخرى غيرها حثت الدول الأوروبية على تضعيف الصومال وتمزيقها وتشتيت قوة شعبها وتفكيك مفاصل وطنها.

دخل الوطن متاهة سياسية، وتخبط الجميع، وطرأ على الحياة أفعال جديدة، وتفكير سلبي تجاه الدين والدولة والحياة والوجود، وسيطر العنف على مفاصل الحياة. عصر من الفوضى، حياة قاتمة بلا بريق، ووطن ينزف، وقصص المشردين واللاجئين والكادحين تنساب على كل شبر، إضافة إلى كون أمتي أصبحت مثالًا لكل ما هو قبيح، الحروب والكوارث الطبيعة والصراعات العبثية والمجاعة والتزييف والهجرات، وظهرت كلمة "الصوملة"! وتوغلنا في الحروب، وفي الممرات المعتمة من بلدنا تتصارع الميول، وتتصادم الإرادات، وتتقاطع المصالح في السياسة والاقتصاد والرغبات، وحول السلطة والثروة، وفي مثل هذه الأجواء القاتمة يستوطن الحزن القلوبَ ويترك بصماته على النفوس، والهروب إلى الحاضر يكون تنويمًا مغناطيسيًّا لا أكثر، والتأملات الكثيرة للإيقاعات لا تضفي على المشهد أية نكهة، ومن يحاول أن يبحث عن أصل المشكلة ويسأل نفسه ما الذي جعل الأمة الصومالية منكوبة وتائهة؟ وما الذي سلكها طريقًا يدمي القلب وينهك العقل ويضعف القوة؟ لا يصل إلى إجابة مقنعة، بل ينتهي به المطاف إلى طريق مسدود، وكل أسئلة تتفرع منها عشرات الاستفهامات التي لا نملك لها إجابات.

سئمت من الاستفهامات المتشعبة ومن الترحال الذي أتعب جسدي وأرهقت نفسي التواقة إلى الاستراحة ولو لحظات عابرة، ولكن هاجمتني

ذكريات قادمة من صوب الأرياف الصومالية، وبعض الذكريات تبقى عالقة في الأذهان وتبعث فينا الأتراح فتحول سكون الليالي إلى صخب، وعندما أتذكر تفاصيل ذاك اليوم الحار الذي توجهت فيه إلى مدينة عريقة من مدن وطني الضائعة على الضفة الأخرى للحدود التي نسميه نحن خطًا وهميًا لا أكثر ويسمونه حدًا فاصلًا بين دولتين، تعانقني سحابة من الكآبة.

كنت غريبا في عقر بلدي أتذوق مرارة الحرمان، هنا يفوح عبير صومالي السمات قمحيّ الملامح، وهنا منابر تبكي ومآذن تحنّ، وزوايا تشتاق إلى أذكار الصوفية وترانيم العاشقين، وقلاع تذرف الدموع من أجل الأيام المتألقات، وهنا وضع مزري للماضي، وكيان قديم متصدع. تتابعت الأيام على وقع أنغام الحسرة والألم، وتركتُ المدينة وأنا أكفكف دموعي وأشتكي ثقل شبح مخيف ينتمي إلى أزمنة مضت، واتجهت صوب "غاريسا" عاصمة القومية الصومالية في كينيا، مدينة غارقة بالجنان طبيعيا، الليل دافئ وتصدح الألحان الحالمة من مقهى شعبي عتيق شهدت التحولات الكثيرة والتغيرات التي طرأت على الحياة السياسية والمعيشية والانتماءات المختلفة.

مآسي الغربة داخل الوطن التاريخي لأجدادي لا تنتهي أبدا، وكلما أتذكر ساعات النهار الذابلة في تلك الأمسية يزداد مقتي للمحتل البغيض الذي جعل حياتنا شاقة، وحوَّل رقعة أرضنا المترامية إلى دويلات صغيرة متناحرة، وأقاليم ضعيفة متصارعة تستقوي بالخارج، لقد حول الاستعمار نعمة الأرض إلى نقمة. كنت في مطار مدينة عشقت اسمها منذ أن كنت في زمن الصبا وأيام المدرسة، حبها كان طيفًا يسرى في داخلي وصدى ذكرها كان يتردد في قلبي، بمرور الزمان وبروز اسمها في الساحة الصومالية أصبحت مدينة

لامعة تجذب الوجدان ويتداول اسمها على أفواه الشعراء والأدباء والمناضلين وأعمدة التجارة في القطر الصومالي.

وصلت مطار المدينة وأنا أعزف أوتار المحبة، ولكن صُدمتُ عندما طلب مني موظف الجوازات، التأشيرة وكأني أجنبي قادم من أوراسيا أو قارة بعيدة كأقيانوسيا مثلًا في رحلة استغرقت ٢٠ ساعة كاملة، قلت لمدير المكتب: جئت من مدينتي إلى مدينتي، وحسب علمي الرحلات الداخلية لا تتطلب جوازًا ولا تأشيرة، وأنا أعتقد أنني مواطن وليست المدينة غريبة عني. غضب واكفهر وجهه واحمرت وجنتاه وأخذ كلامي إلى الاحتمالات الخاطئة كعادة من يحملون عقولًا فارغة ويصنعون من الحبة قبة، فقال وقد انتفخت أوداجه: كلامك مستفز وأنت أجنبي قادم من دولة أجنبية، وإن كانت دولة مجاورة جغرافيًّا ووجدانيًّا عند بعض البشر فهي بعيدة عنا سياسيًّا! فقلت مستغربًا: أعتقد أنك تتحدث عن شخص آخر ولا تقصد شخصيتي الجالسة أمامك بسمرتها وشحمها ولحمها.! ماذا تتحدث ومن أين تأتي الغربة وأنا أول ما أصل إلى المدينة سأكون من بين سكانها وأختلط في أهلها ولن أشعر بأي تمييز سواء كان دينيًّا أو لغويًّا أو روابط الدم والنسب، إذًا على أي أساس تعتمد وكيف أكون أجنبيا؟

كانت قصة مؤلمة جدا أن أشعر بالغربة في أقرب مدينة إلى قلبي، أما عاصمة أخذتْ شكلًا فرنكفونيا ورغم أني مكثت فيها عدة ساعات إلا أنها هي الأخرى كانت طاردة لكل الروابط التي نتحدث عنها كصوماليين في المناسبات، كان المواطنون الأوروبيون وحتى الأجانب من الأفريقيين والآسيويين يتمتعون بمعاملة أحسن وأفضل مما كنت أجده أنا الصومالي الذي

أتواصل معهم بلغتنا الأم، ورغم أنني أتفهم المخاوف التي ذكرها عمال المطار إلا أن التمييز أو النظرة السيئة لكل ما هو صومالي كانت مؤلمة جدًا.

يطول التفكير ومعه المأساة التي جعلت أمتي الصومالية أمة نصفها تعاني من التشريد والهجرات القسرية، والنصف الآخر يعاني من الموت الجماعي، والمجاعة، ومصادرة الحقوق والحريات في ظل دولة ضعيفة، ونظام فاسد لم يترك لنا سوى الوعود الكاذبة والفقر المدقع والفساد المستشري في كافة أجهزة الدولة ومؤسسات الوطن. وطن مستباح تُنهب ثروته ويُقتل إنسانه ويدمر حاضرته وماضيه، وشعب وديع أثقلته جراحات السنين وكدمات الواقع، وحكومات متعاقبة لا تقدر طموحات الشعب الظامئ إلى دولة قوية، ولا تسعى إلى تحقيق أحلامه، ولا تعتمد على الموارد الكثيرة التي تحتاج فقط إلى إرادة واعية وإدارة رشيدة، بل تعتمد على التسول والوعود الكاذبة للدول المانحة والرشاوى المهينة للهيئات الأممية التي مازالت تحكم مصيرنا، والمساعدات القليلة للدول الشقيقة، وفُتات الموائد لبعض الدول التي تسعى إلى رد الجميل.

في خبايا الماضي تؤلمني خلجات إنسانية تنساب من نهر الضمير فأتهرب إلى المسكنات الآنية، ومن وجع الحنين أتسامر مع ملامح وأحلام طواها النسيان، وأصغي عبر الأثير لإذاعة محلية تذيع أغاني وطنية للفرقة الموسيقية الصومالية وابَرِي (الشروق)، كلماتها تحمل بصمات الشعراء الكبار وأيقونة الشعر التحرري وأدبيات النضال. كلمات تحرك المشاعر وصوت متفرد راسخ الجمال، كم كانت الأغاني الصومالية الكلاسيكية لذيذة ومترعة بالمشاعر الوطنية الخالدة، وكم كان شعبي كبيرًا في الأدب وفي الطرب ودولة القوافي، كما كان كبيرا في الفنون والحروب وحمل لواء الزعامة في منطقته.

التفكير الطويل لمآسي شعبي وويلات أمتي جعل الليل من حولي مظلمًا وقاتمًا، هنا الزمن يمشي بتثاقل غريب كأن عقارب الساعة لا تريد أن تتحرك، فأحاول الهروب إلى ميادين الفكر والثقافة والمعرفة والأدب، فأبحث في مكتبتي الإلكترونية عن كتاب يؤنس وحشتي وأتقاسم معه هموم الليالي فتقع عيني على كتاب " الدولة الفاشلة" للفيلسوف والكاتب الموسوعي الأمريكي نعوم تشومسكي وأنا أبحث عن الأدب والتسلية والقصص الشاعرية. يرتجف القلب ويزيدني الكتاب شجنًا وأسىً؛ الصفحات تتحدث بدقة عن وضع بلدي، والنظريات تؤيد ما حدث هنا، تفشل الدولة في بسط النفوذ والسلطة وتعجز عن توفير الخدمات الأساسية للمواطنين وينهب المسؤولون الأموال وتقوم الدولة بمصادرة الحقوق والحريات ويموت الأطفال جوعًا وعطشًا ونقصا في الأغذية والمستلزمات الطبية، وتهاجر الأدمغة والعقول المثقفة إلى الخارج، ويبدأ التناحر القبلي وهذا ما عانيناه حرفيا.

تمضي الساعات وأنا في السكون أجهز نفسي للعودة إلى "كسمايو" ووجهها الباسم. المدينة ما زالت تترنح، وفي دروبها يوجد ألف حكاية وحكاية. الحياة مثقلة بصدى الأيام وذكريات المدرسة والخلان، أشجارها الطويلة والغيمة اللطيفة في الربيع، والمقاهي الشعبية، وعيون الأطفال تذكرني زمن الطفولة وأيام الصبا، هنا دارت معركة طفولية، وهنا قضيت ليالي صافي الجبين سامرت فيها حتى الصباح، وهنا سجلت هدفًا قاتلًا في الدقائق بدل الضائعة، وهنا كنت أغدو في الصباح الباكر وأنا متوجه إلى مدرستي وعالمي الجميل. وهنا قابلت جميلات، سمرة قمحية وتغنج في وهج العشق.

أمسيات السمر والأحاسيس القديمة منقوشة على جدران البيوت الطينية والضفة الخضراء لنهر "جوبا" والمراعي المعشبة للأبقار. في الطرقات

الترابية أشم أريج الماضي، وأشعر بأهازيج الأطفال في أحضان القرية الناعسة على أهداب النهر، وأنظر بعمق إلى الأحياء العتيقة. أطفال يلعبون بالكرة على ميادين أحلامهم، وكهول يمارسون الحياة على مسارح حداثتهم، وأحياء تعانق المحيط، وبيوت تلاصق الرمال، وأزقة خازنة لحكاية المنطقة بكل ألوانها ولوحاتها الحياتية والمعيشية والوجدانية، مساجد ومباني عريقة ذات هندسة معمارية على الطراز العربي، وأسواق تحمل بصمات واضحة للهنود والشيرازيين، وشرفات بنكهة إيطالية مترعة بالزخارف، وحارات تخلد ذكرى العمانيين وأسماء الحضارمة والإمبراطوريات المتعاقبة على حكمها.

وصلتُ مدينتي وأنا أعاني من تفكير أتعب كاهلي وأعباء تجتاحني منذ أن جعلت "الصومال الكبير" شعاري ومبدأ أعيش من أجله، كنت غارقًا في النوم ومتدثرًا بأحلامي، وعندما نزلت من الطائرة عند التاسعة صباحا في يوم مشمس ارتفعت الرطوبة إلى أعلى مستوياتها تنسمت هواء المدينة المشوبة برذاذ الحفاوة فذهبت مع أصدقائي إلى بيتنا فاستسلمت للكرى أو بالأحرى إلى أحلام تقودني مجددا إلى أعتاب المأساة وظلم الصومالي لأخيه الصومالي، والفلسفة القبلية المبنية على ازدراء بعض القبائل وتهميشهم دون وجه حق! تعالوا نواصل القراءة نحو التهميش والهوية الضائعة وأسئلتها المحيرة.

العنصرية وأزمة الهوية!

أثارت شجوني محاضرة ألقاها البروفيسور عمر إينو - رحمه الله - قبل وفاته بسنتين، كانت أطروحة أستاذ التاريخ الأفريقي في جامعة ولاية بورتلاند الأمريكية عن العنصرية ضد شريحة كبيرة من المجتمع الصومالي بعيدة عن الاعتيادية وفتحت آفاقا جديدة لكثير من الباحثين والكتاب والمعنيين في هذا الحقل الإنساني. شخصيًا نكأت المحاضرة جرحًا قديمًا جديدًا في نفسي وأثارت استيائي، كيف يغيِّر الإنسان انتماءه وجلده وماضيه، ويهرب من واقعه لينسج في الخيال هويات جديدة هشة وغير قابلة للحياة؟

البروفيسور تحدث بحنق عن الصوماليين ونظرتهم الحقيرة للإفريقيانية وكراهيتهم الشديدة للانتماء الأفريقي - رغم أنهم أفريقيون في كل المعايير - وادعائهم أنهم ينتمون إلى السلالة العربية كغيرهم من الأفريقيين أمثال السودان، وموريتانيا وجزر القمر وجميع المهمشين في الجامعة العربية الحائرين بين عروبة لا تشبههم وأفريقيا لا يرغبون الانتساب إليها يرجع في نظري إلى

حبهم الشديد للنبي محمد ﷺ وآل بيته الطيبين، إضافة إلى التفاخر والهجو المترسخ في البنية الثقافية للمجتمعات وخاصة المجتمع الصومالي البدوي الذي كان يمدح ويهجو القبائل حسب النسب والحسب وشرف العرق وعراقة الانتماء.

ورغم أنها يعتبر من المضحكات وغير مفهومة بالنسبة للآخر الذي لا يعرف كثيرًا عن النظام القبلي وبنيته في الصومال إلا أن التمييز العنصري والتحقير العرقي المبني على اللون والشكل، والنسب، والملامح، والمهنة، أو الميثولوجيا الصومالية والحكايات المتوارثة عن الأجيال هي مشكلة تواجه أطيافًا عدة من المجتمع الصومالي، فبعض القبائل يتم تمييزهم باللون والعرق والملامح والشكل ويتم إبعادهم عن توزيع الثروة والسلطة ومشاركة حكم البلد نظرًا لعرقهم وملامحهم ولا يمتهنون إلا المهن الحقيرة في عيون الإنسان الصومالي البدوي الذي لا يرى غير رعي الإبل مهنة شريفة تستحق المزاولة، وهؤلاء هم قبائل جَرِيرْوَين وبعض القبائل يتم تمييزهم نظرًا لمهنتهم وللأساطير الصومالية المروية التي تتحدث عن وقوع كوارث طبيعية في الحقب الحياة القديمة، وتعميم مجاعة أهلكت الحرث والنسل، وفي عز الفاقرة وانعدام الطعام والماء أكلت بعض القبائل الجيفة ولم يستطيعوا أن يصمدوا ويتجلدوا أمام وقع الجوع، وهم قبائل عدة أمثال مدجان، ومطبان، تمال وغيرهم كثر.

وهذه نظريات بعيدة عن المنطق والعقل، ولا أعتقد أنها حدثت في الواقع، بل هي مبنية على الخيالات والأساطير الوهمية، ولو فرضنا جدلًا أنها وقعت فالإسلام أحلّ أكل الميتة عند الضرورة، ورغم أن الفئة الأخيرة لا يمكن تمييزها عن معظم القبائل الصومالية سحنة وملمحا إلا أنهم يعانون تمييزًا من

نوع آخر، وهو التمييز الثقافي ويعانون من حصار خانق، وقطيعة في الزواج والتصاهر، ولا يجدون مشاركة فعالة وحقيقية في حكم البلد وتولي المناصب الرفيعة.

في الصومال وحيث تسود الثقافة البدائية التي تفرضها العادات والتقاليد والموروثات الشعبية، والأعراف البدوية التي تمجد العرق وتقدس النسب والحسب ما زالت العنصرية تكبل حياة الشعوب والأفراد، وما زالت مأساتها تكدر حياتهم، وفي الآونة الأخيرة بدأت هذه القبائل حراكًا وأنشطة ثقافية وتوعوية بدأت في المهجر وخاصة الدول الغربية وبعض الدول العربية التي وجدت فيها القبائل المضطهدة حرية كبيرة للتعبير عن آرائهم وأفكارهم وطرح نظرتهم ومناقشتها على المنابر والوسائل الإعلامية دون خوف أو وجل، وسرعان ما وصلت صدى الاجتماعات والنشاطات الخارجية إلى الوطن ليسود على الساحة الصومالية وينتشر على ربوعها كانتشار النار في الهشيم، وأخذ حيزًا مهمًّا من النقاشات والمنتديات والبرامج التلفزيونية والثقافية والندوات.

بعيدًا عن التمثلات العنصرية وتأثيرها على المجتمع إلا أن أزمة الانتماء وضياع الهوية وتعدد الولاء وعدم الوضوح العرقي للإنسان الصومالي هي الأخرى معضلة يتعايش معها الصومالي منذ عدة عقود، ولقد أثيرت حول هذا الموضوع الشائك زوابع كثيرة وأقاويل متعددة وكتبت عنها أبحاث وأسفار معظمها مبني على الأهواء والتخمينات ويغلب عليها الطابع المشاعري وليس العلمي الذي يبحث أصل المشكلة بتجرد ومهنية، الكل يكتب ويدون ما يملي عليه هواه ويستمد نظرياته من أيديولوجيته وخلفيته الفكرية والعقدية والعرقية، من له خلفية إسلامية ومن يملك عقلية عربية

وأيديولوجية العروبة وأفكارها يلحق الصوماليين إلى الشعوب العربية دمًا ولحمًا وانتماءً دون عناء البحث، أما من يحمل النظرية الأفريقيانية أو الغربية التي تبعد الصومال عن محيطها العربي الإسلامي فهو يُرجع أصلهم إلى السلالات الكوشيتية وإن لم يملك أدلة قوية توحي بذلك.

جدلية الهوية والانتماء والحيرة بين الأفريقانية والعروبة ما زالت تسيطر على وجدان الصومالي منذ انضمام دولته إلى الجامعة العربية، ففي الماضي لم يكن الصوماليون يعانون من أزمة الهوية وضياع الانتماء لكونهم يرون أنهم حاجز بشري يقع بين تيارين وبين أمتين، الأمة العربية التي كان الصوماليون يشتركون معها في العقيدة الدينية والروابط الثقافة والتاريخ المشترك والتقارب الجغرافي والوجداني، إضافة إلى بعض الملامح والسحنات الموجودة على جبينهم، ولا ننسى أن قبائل عربية كبيرة عاشت في الصومال وبعضها حكمت على ربوعها عدة قرون مما أضفى على المشهد الصومالي طابعًا عربيًّا وإن كان معظمه يكمن في المورثات الدينية والتاريخية والمعمارية والحكايات الشعبية، في حين كان يشترك مع الشعوب الأفريقية في بعض العادات والتقاليد والانتماء الجغرافي والتشابه المظهري إضافة إلى رابط الدين، ورغم ذلك لم يكن هذا الاختلاف الصومالي الواضح للعرب والأفارقة هاجسًا يؤرق مضجعهم إلا بعد تأسيس المنظمات القُطرية والاتحادات القارية والجمعيات الدولية، وبعد أن انضمت الصومال إلى الجامعة العربية عام ١٩٧٤م في عهد الرئيس الراحل محمد سياد بري، وترتب على هذا الانضمام عدة مشاكل واجهها الإنسان الصومالي أفريقيًّا وعربيًّا.

عربيًّا كانت الإشكالية الكبرى أن الصوماليين لا يتكلمون اللغة العربية، بل لديهم لغتهم الخاصة وإن كانت كما يقال٤٥٪ تقريبا من مفرداتها تعود إلى

اللغة العربية، والغريب أن مساحة اللغة العربية تتضاءل يوميا في الصومال، ففي عهد الاستعمار وما قبله كان الصوماليون يتكلمون اللغة العربية بطلاقة، وكانت مقديشو والمدن الساحلية مثل كسمايو، ومركا، وبراوة، وبوصاصو، وبربرا، مدنًا عربية، في حين كانت اللغة العربية في حقبة حكم العسكر انحسرت في المحاكم الشرعية وزوايا المساجد. وإن كان التداخل الثقافي والوجداني أمثال القصص والأغاني والشعر والأدب والمسرحيات والمجلات العربية والأشعار والقصائد، إضافة إلى البعد المعرفي المتمثل في البعثات الأزهرية والمناهج العراقية منح اللغة العربية وجودًا ملحوظًا وللشارع الصومالي نكهة عربية خالصة وحضورًا قويًّا في داخل الدولة الصومالية الوليدة، ولكن يظل البعد الديني منذ أن وصل الإسلام إلى السواحل الشرقية لأفريقيا الرابط الأقوى الذي يربط العرب بالصوماليين.

ومن المفارقات العجيبة أن اللغة العربية شهدت انتعاشًا قويًّا بعد انهيار الحكومة المركزية وتحولت المناهج الدراسية ولغة الحكم والمعرفة إلى اللغة العربية، وتولّت الجمعيات الخيرية والمنظمات العربية عبء وجود مدارس ومعاهد وجامعات تواصل رحلة المعرفة وتخرِّج للصوماليين كوادِرَ مؤهلة دينيًّا وماديًّا، وكانت الدول العربية في طليعة القافلة التي قامت لنجدة الصومال ومساعدتها، ولقد كانت جهود الأفراد والجماعات العربية وسعيهم الدائم إلى إعادة مناهل العلم والمعرفة أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية في ربوع الصومال حتى نافست بعض المرات اللغة الصومالية المحلية وإن كانت العربية لغة العلم والمعاملات الرسمية، في حين كانت اللغة الصومالية لغة الحياة والشارع والمشاعر.

أما أفريقيا وإن كان الصوماليون ينتمون إليهم ملمحًا وجغرافيًّا فإن الشخصية الصومالية العجيبة في تفكيرها والمتفردة في تصنيف الشعوب ترى أنها لا تنتمي إلى نفس السلالة التي تنتمي إليه البانتو في أفريقيا، وما بين الازدراء لكل ما هو زنجي وعدم الجرأة الكافية للانتماء الكامل للعروبة فقدَ الصوماليون هويتهم ورافقوا ألوانا من التيه والضياع، ومما يزيد الحيرة والشجن المصاحب للهوية هو أن الصوماليين أصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية في كل المحافل عربيًّا وأفريقيًّا، ويشعرون بغبن شديد فيما يتعلق بالهوية والانتماء، ففي المؤتمرات الأفريقية يرى الأفارقة أن الصومال دولة أفريقية تلتصق على الجسم العربي الغريب وتتنصل عن أصلها الأفريقي، والعرب لا تعترف عروبتها ثقافيًّا وإن قبلت سياسيًّا، فهم يعتقدون أن الصوماليين ليسوا عربًا، بل هم قومية أخرى وانضمت إلى الجامعة العربية باعتبارات أخرى أهما التقارب الوجداني وكون الصومال امتدادًا طبيعيًّا للعرب ومهمًّا لأمنهم القومي.

كان البروفيسور يتحدث عن حكايات مؤلمة وقصص مليئة بالعنصرية والاضطهاد النفسي والثقافي، وفي سرده الطويل لفصول المعاناة والألم الذي تعانيه هذه الشريحة من الشعب؛ يتذكر أيام الصبا والمدرسة والعنصرية والاستهزاء المشين ضد أفراد صومال البانتو أو "جرير" حسب المصطلح المحلي، فهم محرومون من دراسة لهجتهم وتناولها واستخدامها في الشأن العام وإن كانت لهجتهم لهجة محلية تتفرع من اللغة الصومالية وليست لغة تنافس أو تضاهي اللغة الصومالية. ومن القصص المبكية ما ذكره البروفيسور في منتصف المحاضرة وهي أن في عام من الأعوام حدث أن تفوّق دراسيًّا أخو البروفيسور وفاز بالمركز الأول في الاختبارات المدرسية وبدرجة عالية جدا،

وفي حفلة كبيرة نظمتها المدرسة لتكريم الطلاب المتفوقين وشارك فيها الآباء والأمهات، أشاد الأستاذ عبد الله مدير المدرسة بذكاء وفطنة واجتهاد التلميذ الصغير الذي حصل على درجات عالية في الامتحان المدرسي. وفي خضم الحفلة ووسط الحضور وقف مسنّ يرفع صوته ليقول: "هل تريد أن نقبل يا مدير أن هذا العبد الحقير تقدم على طلابنا ليفوز في المركز الأول؟ إنها معاناة وألم لا يشعر به سوى من كابد العنصرية وواجه التمييز سواء كان عرقيًّا أو دينيًّا أو لونًا وسحنة وملامح داخل وطنه ومن قِبَل شعبه وأمته التي ينتمي إليها. وفي نبرة حزينة وصوت متهدج يقول البروفيسور كل من له أنف أفطس وشعر أجعد يطلقون عليه "عبد".

في نظرة شعوب العالم أو على الأقل نظرة من لا يعرف كثيرًا عن الصومال وسرديات قبائلها، ولا يعرف التقسيمات العرقية ولا السحنات الموجودة فيها يصنِّف الصوماليين على أنهم زنوج يعيشون في القارة الأفريقية وهذا هو التعريف الصحيح وله الحق في ذلك؛ لأننا أمة تعيش في القارة الأفريقية، بل في شرقها الذي تدل الأحافير والمستحثات الحديثة التي وجدت قريبا أنه المكان الذي بدأت الحياة فيه، وأنها الأرض التي عاش عليها أول حيوان ناطق. أما في نظرتنا التي لا ترتكز سوى على الأهواء فنحن نتباهى بأصولنا غير الأفريقية سواء نقول ننتمي إلى العروبة وخاصة إلى قريش وبني هاشم وهذا انتماء وهمي وخرافي في نظري، ولا يعتمد إلى منطق حقيقي، بل يعتمد على المشاعر المبنية على حبنا الكبير للإسلام ونبي الرحمة محمد ﷺ.

يجب أن تنتهي العنصرية وينتهي الازدراء العرقي والثقافي والتشويه المقصود للملامح والثقافة الموجودة في وطننا. كلنا نعاني من الحروب والتشريد والتبعثر الجغرافي، وكلنا سواسية في اللون والعرق في نظرة المختلف، وبدل أن نجمع قوانا ونوحد صفوفنا ونؤسس حياة جديدة ما زلنا نعطي الأولوية لسفاسف الأمور وأشياء هامشية لا دور لها في رسم المستقبل.

مَغِيبٌ على أعتاب الغربة

عشت في الغربة أطيافًا متعددة، أتعلم.. أقرأ وأكتب، وأحتضن زاوية المقاهي والقصص الجميلة، أشتاق لشذا الأهل وشجار الأصدقاء، وكنت أراقب وضع الوطن وهيستريا الشعب وتقلبات السياسة عن كثب، أسير على درب التعلم أتعثر فأنهض ولا أجد من يساعدني أو يواسيني أو يشارك معي إيقاعات الحياة والمتاهات الكثيرة للغربة سوى الأصدقاء. وفي كل مغيب على أعتاب الغربة وعلى امتداد السنين والمعاناة، كنت أتذكر الأمسيات الوادعة على أكتاف الوطن برسمه السماوي، أتذكر ضفائر الشمس الخجولة التي تتستر وتختفي وراء الظلام، وخلف الجبال الملصقة بشفق المغيب كعذارى يسقين الحيّ أو يسرحن شعرهن بليل صومالي مترع بالشعر والميثولوجيا والأمثال الشعبية وأحاديث الغزوات والفروسية.

كنت أغني كما يغني الشعراء الحالمون بمجد بلدي الذي اشتهر بينابيع الحب والجمال قبل أن تحل عليه نكبات الحروب وعبثية الصراعات ولعنة التقسيمات الجائرة، وأردد وأنا أعزف ألحان التوجع "غنّي بذكري يا بلادي"

وكأني وردة حانية في حقول الوطن تدركها العيون بلا عناء، وفي قمة الحنين كنت أخاطب ملعب طفولتي ومسرح حداثتي وكان قطار الزمن يأخذني إلى الرمال الحريرية، والزوارق التي تتمايل على عباب الأمواج، وكنت أحسّ بفرجة الفرحة كلما استحضرت الأيام الخوالي والحكايات المثيرة، وفضول الأعراب، وعيون الشيوخ الغائرة في وسط التجاعيد، والنظرات الشاحبة للوطن.

في وسط سكون الغربة كانت مخيلتي المخدرة بحب الوطن، وملامح أمي- التي تذكرني بطيبة أهلي في الوطن الكبير ترخي حبال الرحمة على نفسي. معزوفة المشاعر العتيقة كانت تجعل أيامي طاووسية نثر الحب فيها أنغامه على أحاسيسي، وتمر أمامي كلوحة زجاجية شفافة هوس الطفولة للساحرة المستديرة، وشجارنا الصبياني القاتل عند كل هدف يمزق عذرية الشباك، أو كل تمريرة بينية متقنة تفك شفرات المدافعين المتكتلة في المنطقة المحظورة، وكل ركلة طائشة ترسل الكرة إلى المدرجات كسبًا للوقت، أوكل مراوغة مبهرة لفنان داخل المستطيل الأخضر يعزف الإبداع الكروي على الضفة الغربية للمحيط الهندي.

لم أنفصم عن تراثي وتقاليدي العريقة، ولم يترك الزمن طابع الحداثة في نفسي، لأني عشت في صغري في بيئة محافظة ذات أثر روحي كان الدين نبضها الأكبر، فكانت نفسي تندمج مع المسجد العتيق في حيّنا والصوت الشجي للمؤذن الموقر الذي تراجيع صوته تشبه صوت مؤذن الحي في مدينتنا، جدران المسجد، والأوراد بعد الصلوات المكتوبة بطريقة جماعية تفيض جمالا، والسبحة في أيدي المسنين، وحتى دورات المياه للمسجد كانت ترسلني إلى سحيق الذكريات في مسجد سوق ويني الشامخ في كسمايو، ولم يكن صوت

المؤذن هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه مدينتنا العريقة مع العاصمة العملاقة، بل طريقة الأعراس، وزغردة الحرائر، واللوراي القادمة من أدغال خط الاستواء محملة بالبضائع والخضروات، وعشوائية المدن، وزحمة الطرقات، تحركت في وجداني ذكريات أبت أن تتصالح مع نفسي.

في عز الغربة كنت أشتاق إلى المسابقات القرآنية، ويذيبني الحنين كلما أتذكر كيف كنا وكيف كانت الحياة؟ كانت جميلة مترعة بالإيمان والحيوية وآمال فاقت كل الحدود رغم بساطتها وصعوبتها. لا أنسى هيبة لجنة التحكيم ونضارة وجوههم وهمساتهم وسعالهم ونحنحتهم وهم يتشاورون في بعض الأمور، أو يقرأون الآيات على مسامع المتسابق ويوجهون الأسئلة نحو طفل أدهشه الحضور المكثف، أو ينتظرون المتسابق القادم الذي يتخطى الصفوف والرقاب بأقدام مثقلة بخلجات إنسانية طبيعية، وبملامح صبيانية طغى عليها ترقب المالات، أطالع على شاشة الأفق وأنا في منتصف العقد الرابع من عمري أشكال الشيوخ وتقاسيم وجههم؛ لحية كثيفة قصيرة أو طويلة، مخضبة بالحناء أو بيضاء مثل الثلج وربما سوداء تشوبها بعض الشعيرات اللامعة، كانت متعددة الأشكال والألوان.

أجواء الإيمان المحيطة بالموقف كانت لا توصف، مسجد عتيق لا يبعد كثيرا عن المحيط الهندي، وللمحيط والبحار رمزية كبيرة في مخيلتنا، طفل يرتل القرآن وصدى صوته الطري يمنح على الحضور طمأنينة وسكونًا، وآخر ينتظر بدوره، وثالث يرتجف خوفًا، آباء يمدون أعناقهم لرؤية فلذات أكبادهم وهم يقرأون القرآن غضًّا طريًّا كما أنزل على محمد ﷺ، حضور مكثف وهدوء عميق تتخلله دموع مسكوبة، وعيون شاخصة نحو اللجنة، صوت متهدج لميكروفون لا يعرف التغيير بل ظل ثابتًا في كل المسابقات القرآنية في العقود

الأخيرة، خفقات قلب، عرق يتصبب من الوجنات وجلًا، وخوف صبياني يتلاشى بانتهاء الموقف، ومشاعر متناقضة تسودها الرهبة، كنا براعم وأطفالا ومراهقين يحفظون القرآن ويعشقونه ويرتلونه آناء الليل وأطراف النهار ولا يشغلهم عنه سوى الدراسة النظامية وكرة القدم التي كنا نلعبها مرتين في الأسبوع، كنا صغارًا شكّلهم القرآن، وينتظرون تلك المناسبة لإظهار حفظهم أولًا ورفع مقام مدارسهم ومعلمهم ثانيا، ونيل بعض الجوائز التي كانت وبعيون أطفال أرهقهم الحرب هدية العمر ثالثًا.

وبين الخيال الجامح والليالي الصامتة في غربة تقيدك على رصيفها، كنت أقطع الزمن مع أصدقائي في الدراسة وزملائي في رحلات الحياة، وممن عاشوا معي على بساط التعلم وفي صروح المعرفة، وكنت أنفث الأحلام في كنف الحكايات والأساطير، والليالي الملاح والأحاديث الشبابية الساذجة وعلى وقع النبرات الصوتية التي تعاني من المنطق المعاكس للحياة. كنَّا شبابًا يحتضن ذكريات الحب المليئة بالتراجيديا، لأن الحب لا يتماسك أمام عاصفة الفراق والجفاف العاطفي الذي غالبا ما يكون الابن الشرعي للفراق، بل يتساقط الحب في أغلب الأحوال كأوراق أشجار الخريف، كنت أناجي شبح الأرواح وطيف حبيبة ابتلعها الأفق البعيد. أجواء السمر المشحون بالأحاديث الجذابة وذكر النساء وحديث النساء له شجون ووقع خاص يثير الشعور ويلهب الخواطر هنا في الغربة، وهناك في المنافي البعيدة لابد للمشتاق أن يتذكر النظرات القاتلة والتغنج المميت والدلال الأنثوي التقليدي. ولا شيء يعادل لذة التعامل مع عطر ذِكر الأنيقات سوى القراءة الماتعة حين تلاطفك نفحات الفجر.

كنت في السودان وكانت الغربة تغرس أنيابها على جسدي، وفي خضم أمواج الدراسة والوحدة القاتلة في "حي جبرة " كنت أتابع عبر الأثير وعبر الشاشة العريضة البرامج الثقافية السودانية علها أجد ما يواسيني أو يخفف عن كاهلي لوعة الابتعاد عن أهلي ووطني. تواشيح النهر الخالد" للإعلامي المتميز حسين خوجلي الذي كان يستضيف نجوم الفن في الليالي الرمضانية أمثال الحلنقي، ووردي، وحمد الريح، وإبراهيم حسين، وعبد العزيز، وآخرون كان برنامجي المفضل وترك في نفسي أكبر الأثر في تلك الحقبة الفارقة في حياتي، كما كان مدخلًا مهمًا للثقافة والفن السودانيين، وفي تلك الفترة أيضا تكونت صداقة متينة مع بعض المثقفين والكتاب وبدأت أكتب صحيفة الانتباهة التي كانت يومها من أكثر الصحف السودانية انتشارًا وتوزيعًا.

للأصدقاء والأحبة دوما مكانة خاصة في قلبي، سواء كانوا ممن عرفتهم عن كثب وعن طريق العالم الواقعي أو جمعتنا الحياة صدفة وبدون مقدمات وتفرقنا ونحن نذرف الدموع ونتسارع مع الزمن، ونحاول ألا ينسى أحدنا الآخر، أو جمعتنا التكنولوجيا والعالم الافتراضي في بحوره وفي وسطه المشحون بالأقنعة المزيفة. وعلى ذكرهم تعيدني الذاكرة إلى العقد الأول من الألفية الثالثة وفي العاصمة السودانية الخرطوم؛ حيث زارنا شيخ مشهور في القطر الصومالي ومن القيادة البارزة للحركة السلفية الصومالية، كان باحثًا وخطيبًا مفوهًا ومتمكنًا في الفكر الإسلامي وملمًّا بالسياسة العالمية، وبحكم مشاغله ومؤتمراته ومكانته البارزة في السلك الحركي وكوني مهتمًا بالثقافة ومطلعًا على الحركات الإسلامية في القرن الأفريقي وكاتبًا يكتب عن الشأن الصومالي طلب مني بعض الأصدقاء أن أساعده لإكمال بحثه وكان في وقتها يكتب حول دور الحركات الإسلامية (الجهادية) في القرن الأفريقي، وكان يجنح نحو

السلام وإلقاء السلاح والانخراط في السلك الحكومي بطريقة سلمية وبعيدة عن العنف والنضال المسلح.

في بداية الأمر لم أكن متحمسًا لولوج هذه المتاهة ولا مساعدة هذا الرجل الذي لا أعرفه ولا يعرفني، ولكن دوما للأصدقاء سلطة أخلاقية تجبرنا على ابتلاع المرارة رغم الألم، وفي أول اللقاء وبدون مقدمات سألني أي موقع إلكتروني إخباري أو ثقافي أزوره يوميا وباستمرار فقلت: صحيفة الشرق الأوسط اللندنية فقال لي وقد اتسعت حدقات عيونه: هل أنت علماني يا ولدي؟ فقلت لا والدهشة تلاحقني؛ وأردفت بل أراها أيديولوجية مدمّرة وفكر غربي مسيحي لا يصلح للشرق الإسلامي، فقال باستغراب ولم تقرأ هذه الصحيفة المتطرفة العلمانية إذًا؟ فقلت لا أهتم مطلقًا لهذه التصنيفات ولا أعرف خلفيتها الفكرية؛ وحقيقة لم أكن أعرف حينها شيئا عن الخط التحريري للصحيفة، ولكن من أجل الأستاذ سمير عطا الله فقط سيدي، تدهشني كتاباته ويسحرني تعبيره وتجاربه عن الحياة والكتابة والأدب والترحال..

وبعد برهة قال قرأت مقالك المنشور في صحيفة الانتباهة السودانية لغتك سليمة جدًا وحصيلتك اللغوية لا بأس بها، ويبدو على أسلوبك شغف الكاتب الصاعد وبعض الإسهاب والافتنان بالفن، وفكرك إلى حد الآن ليس جامحًا وبعيدًا عن جادة الحق والصراط المستقيم وكأنه يحمل ميزان الأعمال ويملك صكوك الغفران، سكت برهة من الزمن ثم قال: وبلهجة حادة اسمع يا ولدي أريد أن تكون مثل الكاتب القدير "إسحق فضل الله" تبهرني كلماته ونصرته للإسلام.. نحيف البنية قوي الحجة عذب الكلام سلس الأسلوب غزير المعرفة يغوص في أعماق الأعماق.. فقلت مع احترامي لذوقك ونصيحتك بطبيعة الحال وقلم الأستاذ فضل الله إلا أنني مختلف عنه تماما وفي بداية طريق طويل كثير المطبات والمتاعب، وأريد أن أشق الطريق بأسلوبي وفي

الأخير أن أترك في حقل التأليف والكتابة بصماتي الخاصة دون أن أذوب في جلباب شخص ولا في أسلوب كتابته مهما علا شأنه وارتفع كعبه في عالم الكتابة، والتجارب لا تستنسخ، وتختلف الكتابة نظرا للبيئة والأفكار والمشاعر والخلفيات التعليمية والاجتماعية ومستوى الإدراك وكذلك التجارب، ولكن أرفع لك القبعة سيدي لكونك فريد زمانه ومختلف عن السلفيين الذين رأيتهم في حياتي إذ "لا تشبه تكرارهم" والجملة الأخيرة للعراب الراحل أحمد خالد توفيق رحمة الله عليه؛ تمدح كاتبًا من حركة إسلامية مخالفة وتكيل له الثناء أليس هذا مرفوضًا في أوساط جماعتكم؟ تحملق حول الغرفة وأخذ الحاسوب وغادر الغرفة دون أن يلوي على أحد أو ينبس ببنت شفة.

لم أقبل منه التلقين الببغائي، ولم يعجبه ردي الجريء حسب قوله فغرقنا في الشبر الأولى من النقاش وتبادل الآراء وتفرقنا ولم نلتق إلا بعد عقد وفي عاصمة أفريقية بعيدة عن ديارنا، في هذا اللقاء العابر كان متيقنًا بما لا يدع مجالًا للشك أنني علماني حاقد على الإسلام وأهله فصافحني ببرودة قائلا: من تصرفاتك عرفت مصيرك وكأنني أشاهد عبر شاشة الأفق، تكتب عن المرأة والفن، والأغاني، وما يسمونه الأدب! نظرت إليه شزرًا وهو يتمتم بكلمات عن ذم "الآخر المختلف" ويردد " كث الشوارب حليق اللحية مسبل الثياب" ولا أعرف ماذا يقصد وماذا يريد أن يقول! ومن المضحكات المبكيات أن الكثيرين من أمثال هذا الشيخ ليس لهم إنتاج ديني ولا معرفي ولا ثقافي بضاعتهم تفسيق الناس وتبديعهم وتشويه الحنفية السمحاء بتصوراتهم وتفسيراتهم ونظرتهم "الأحادية".

ما زال الحنين يسوقني نحو الأصدقاء الذين يعيشون في ذاكرتي حتى بعد عقود، وأخص بالذكر أصدقائي الذين اقتسمنا تكاليف المعيشة وتسامرنا كثيرا في مراكز اليتم أو الحرم الجامعي أو ردهات البيوت التي كنا نسكنها بجو من

الألفة والتناغم على امتداد ثلاث عقود. كنا نجلس تحت الفضاءات نستمتع بكل ما لِلَحظات الصداقة من مزاح وتسلية، وأكواب الشاي الممزوجة بالضحكة الصافية تدور كحلقة متصلة بيننا.

في معظم الأحوال كنا نتحدث بمرارة عن تخلفنا وتقدم غيرنا، نتحدث عن تشبثنا بالجهل والمخيمات والشتات في عالم يغزو الفضاء ويهدف إلى إعمار المجرات! نهدم ما بناه الأجداد بينما الآخرون يواصلون السير نحو السلام والرخاء. الجوار الأفريقي بدا كالمارد متسرعًا نحو إرساء دعائم المجد والتسلق على القمة. حكام أفريقيا ودول الجوار وأن تدثروا بالفساد وشبق الحكم وشهوة التسلط إلا أنهم يقودون بلدانهم نحو الاستقرار والنهضة الاقتصادية، بينما قادتنا يتربعون على رأس هرم الفساد ويحكمون الوطن بعقلية العشيرة وينهبون الأموال وكأنه ملك لأبيهم، وفي آخر النهار يطل واحد منهم على شرفته أو عبر حسابه في تويتر أو فيسبوك أو على التلفزيون ليتحدث عن الحكم الرشيد ودولة القانون وتمديد فترة ولايته!

في وسط التيه فقدنا البوصلة فبتنا مذهولين! لم نكن ندري من أين نبدأ هل نرفع عقيرتنا ونردد بالتهم الجاهزة "نظرية المؤامرة" أم نقول والغصة تقتلنا "على نفسها جنت براقش" أم نعتب على القادة الصبيانيين، أم نندب حظنا السيئ وزمنا التعيس؟ عموما كان صوت العقل نشازًا بين هدير الغوغائيين وبات قليلا من يقول: الوطن يجمعنا والمصالح المشتركة تجبرنا أن ننسى كل ما يكدر صفو الحياة، ويحارب المستقبل والحاضر والماضي، وفي إطار التعامل والتحاور والعيش المشترك في دولة مسؤولة عن حياة كافة القبائل والأفكار والاتجاهات، وفي طريقنا إلى دفع عجلة السلام والتنوير المعرفي إلى الأمام، يجب أن تكون أولويتنا التغيير نحو الأفضل والإصلاح والطموح العالي

والتغاضي عن الصغائر والسقطات التي توسع الهوة بين أفراد المجتمع، وأن يكون اختلافنا كما يقولون "اختلاف تكامل وتعاضد لا اختلاف تضاد وتحارب" ويجب أن ندرك أن وطننا الجريح لا يحتاج إلى مزيد من الحروب والإبادة، كما لا يحتاج إلى الأنظمة الشمولية والاستبداد والمصادرة بشتى أنواعها، بل وفي هذا الظرف الحرج نحتاج إلى إحضار روح الأخوة والمحبة والدخول المنظم والمقصود إلى الحوار والتفاهم والنقاش الجاد المفضي إلى سلام دائم بيننا.

ولكن مع الأسف الأصوات السيئة والخطاب القبلي هما سيدا الموقف، ومعظم الجهات الرسمية والدولية لا تريد أن نسير نحو الخروج الآمن من الحروب الأهلية لنعيش تحت دولة تطبق القوانين وتراعي الحقوق والحريات وترفع سقف الحياة وتسعى نحو تحسين مستوى المعيشة، ولكن ورغم سوداوية الوضع نرجو أن يرجع الزمن إلى سابق عهده والمياه إلى مجاريها وأن يستدرك شعبنا قبل فوات الأوان أنه مهما افترقنا وتحاربنا فنحن أبناء أمة واحدة وجزء لا يتجزأ وواحد لا يقبل القسمة.

أجواء النقاشات كانت مشحونة ومكهربة في بعض الأحيان، وهادئة في معظم الأحيان. في تلك الفترة كانت قصة محمود "أركيولوجيا الموت" هي الأكثر تأثيرًا في خيالي، حياته كانت مترعة بالألم والشقاوة. على امتداد طريق قديم ومليء بالقاذورات والأشواك كانت مشاعره ممزقة، وأهدافه ضائعة، ومبادئه مهتزة مثل معظم شريحة الشباب الهائمة في متاهات مجتمع يعيش تحت وطأة حياة متناقضة وثقافة أبت أن تواجه تساؤلات المراهقين بثبات ومنطقية. كان رقيق المشاعر، رومانسي التفكير تجرحه الابتسامة العذبة في الأمسيات المترعة بمثاليات الشباب والأنا التي تستبدّ به قبل أن يدمن المخدرات التي

باتت ملجًا لمشردين عاندتهم الحياة على ضفاف مفاهيم تمثل تابو غير محكيّ في مجتمعاتنا الشرقية. والمخدرات مثل الإرهاب والتطرف تنتجها البيئة المغرقة بالبطالة والعنف والفقر والفوارق الطبقية، وتطاردها البيئات المحصنة من الأمراض المجتمعية.

البيوت القريبة للملعب الكبير كانت مقرًّا للحشيش وأصحاب الهلوسات. في المساء وقبل انطلاق مباريات كرة القدم كانت الطرقات تتحول إلى ساحات مفتوحة للسكر وشجار العصابات، وتتحول الأزقات الجانبية إلى ميادين للعراك ومشهد مقزز من معارض تقدم للمراهقين لفافات الحشيش، وأقراص من المخدرات الثقيلة، وكوكايين رديء، وأنواعًا من الكحوليات القادمة من الحدود الجنوبية عبر الطرق البرية أو المحيط الهندي، وجرعات من خمر محلي. في ليلة خانقة بالبرد وتحت كوابيس الحقن كان يجر خيالًا مغرقًا بأماني التحرر من المخدرات وهو على سطح بيت مطل على أطلال قاعدة عسكرية عتيقة في مدينة تتوسد ثروات خامة وموقع حيوي وتصحو على وقع الفاقة والتشريد. المدينة لا تقدم سوى الحروب وحياة مغمسة بالفقر والسطو المسلح، ولا يجد المرء فيها سوى أكواخ عائمة فوق بحار من الدموع الصامتة، وقناعة تشكل نواة صامدة ومذهلة لفقراء يحلمون بغد أفضل بعيدًا عن الألم وجرح الذات.

كان أصغر من أن يقيّم الوضع، ويحطم قيود الواقع، ويفهم المنطق المعكوس للصراعات دون أن يرتكب حماقات قاتلة. عن كثب كان يراقب أطلال دولة هدمها معول القبلية وصواريخ الميليشيات الثائرة على الاستبداد العسكري رغم ما تحملها من الأجندات الخارجية، والمفاهيم السطحية، والخطاب ذات الطابع الإقصائي والجهوي في وطن ظل قابعًا تحت بطون

متشاكسة وقبائل متصارعة، وريفيون تقودهم الأناركية البدائية إلى محاربة الأنظمة وتعليق الدساتير وتقويض الدول والتنقل عبر الحدود بكبرياء البدويين، وجسارة حملها الصوماليون في جيناتهم بامتداد الأجيال والأزمان.

النياشين العسكرية تومض وراء بقايا مبانٍ جرفها الزمن بعيدًا نحو النسيان، والجبال الرسوبية المحاذية للثكنة العسكرية تواجه المغيب بثبات مشرقي مهيب وتضفي على المشهد رونقًا استوائيًا متفردًا قبل أن تتوغل في عمق مياه تتكسر على أهداب المحيط، وتلامس مقابر الهنود، وأطلال العرب، ولوحات رسمتها الحرب بإتقان موغل في مأساة شكّلت الذوات والإنسان وغيّرت المفاهيم والطباع، وأصابت الأوتار الحساسة للمجتمع حتى جعلت الحياة سلسلة من الخيبات والمخاوف والهجرات المتعاقبة نحو الدول المجاورة والمنافي الباردة.

من الصعب أن نعبر عن مأساة الحروب ودمويتها الموحشة في الأوطان والأشخاص والقيم الحميدة للمجتمعات المنكوبة، إنها تحمل ثيمات قاتمة تغيّر الأفكار وتشوّه الطفولة البريئة وتغذي الفقر وتنهك الاقتصاد، وفي ظل جحيمها يستخدم الزعماء أموال الشعب، وممتلكات الدولة، لشراء الأسلحة، والذمم، والتحالفات، وتدمير المدن، والتاريخ، واغتيال كل الفروق والاختلافات التي كانت تثري حياتنا وتمنحنا ألوانًا من الاتساق والانسجام، وبعد سنوات من عبث الصراعات الصفرية يهدرون الأموال بعقد مؤتمرات عقيمة، ومصالحات وهمية هدفها إطالة أمد الحروب، ودغدغة مشاعر المجتمع، والاستثمار بخيباته.

المصالحة والمؤتمرات الخارجية والداخلية لا تستطيع ـ رغم كثرتها ـ أن تصل بنا إلى بر الأمان، بل في ظلها تتكاثر الميليشيات، وتتفرع الصراعات،

وتتوالد المأساة هندسيا، ويتأزم الوضع، ومن رحم مأساة مهلكة تنشأ أخرى أكثر فظاعة وأعمق إيلامًا من سابقتها لأن المفاهيم الأساسية التي نستمد منها مفهومي «الحرب والسلم» قد غيّب تمامًا وأبعد عن المسرح السياسي والاجتماعي فتبحرنا في عالم من الدموع وآهات ممتدة بلا نهاية.

من الغريب أن يصرّ البعض على استنساخ التجارب وتوريد الحلول الجاهزة، والتمادي في البلاهة بحيث يهمشون نقاط قوتهم ويروجون لمصالحة غامضة وبمفاهيم طوباوية لا تبحث الحلول، ولا تحقق المطلوب، ولا تردم الهوة بين الفرقاء، ولا تمت للمفاهيم المحلية ولا الأعراف القبلية بأي صلة. فبينما نستمد تعاليم الدين والتقاليد القبلية مفهوم السلم والحرب والمصالحة، يستمد رعاة المؤتمرات العبثية أفكارهم من الفكر الغربي الذي يموّل مسار السلام في الدول الفاشلة، وعلى ضوئه استوردوا مصالحة بمقاييس غربية تكرّس الانقسام الداخلي ولا نعرف عنها شيئًا مما ساهم في إطالة أمد الصراع وتقديم الوطن بتاريخه وإرثه الحضاري والثقافي على الآخر بشكل قاتم يصعب مسحه عن الذاكرة الجمعية لسكان المعمورة الذين لا يعرفون عنا سوى الجوع والقرصنة. وأخشى أن تترسخ هذه المفاهيم في المخيلة العالمية حتى وإن وجدت الإرادة الحقيقية والكوادر الوطنية الموهوبة التي تحاول حسب قدرتها تغيير القالب النمطي الذي يروجه الإعلام الغربي والعربي عن وطن لم يجد من ينصفه أو ينبري لدحض تلك الصورة المشوهة بعد أن انخرط كثير من شعرائه وكتّابه ومفكريه وأدبائه الكبار في «المسرح العبثي» ووحل الانقسامات الحادة في المفاهيم والجغرافيا، ومجّدوا الحروب الأهلية بأقلامهم وأشعارهم وآدابهم وإنتاجهم الثقافي.

في عمق المباني الأثرية كان يبحث كعادته عن شيء يدفئ معدته الخاوية قبل أن يمتلكه الحنين إلى قلاع الدراويش ومسرح جهادهم البطولي، وآثار ممالك الطراز الإسلامي الذين نشروا الإسلام حتى في الأعماق البعيدة للقارة السمراء، ومقار المستعمر الأوروبي وبعثاته الاستكشافية، ورحلات المستشرقين عبر القرون، ومسجد القبلتين في زيلع المنسية، ومنابر هرر الخاوية، ومدن الحضارمة، وممالك العمانيين في المشرق الأفريقي منتشرة على طول الساحل وأعماق مناجم حضارته الخامة التي لم تجد حظها من الأبحاث والدراسات.

ذهب محمود بعيدًا وتجاوز المناظر المحيطة به إلى سحيق التاريخ قبل أن تقطع النشرة المسائية لهيئة الإذاعة البريطانية تفكيره. كان يخطط وهو يصغى السمع إلى الراديو الذي يتحدث عن مآسي العبودية الجديدة في ليبيا كيف يهرب عن وطن غارق بالدموية والفوضى الإدارية حتى أصبح مسرحًا مفتوحًا للقوى العالمية؟ لقد سئم مراقبة شروق الشمس وغروبها، والأيام الخالية من الإنتاج والإنجاز والإثارة، وكان يمنّي النفس بالهجرة إلى أوروبا دون أن ينسى طول المسار، ووحشية تجار البشر، ومتاهة الرمال المتشابهة.

عبر فيلم وثائقي لقناة عربية مرموقة كان الموت يطل بأنيابه من كل مكان، والمسافرون يتساقطون عبر طرق سحقتْ أحلامهم، ولاحت أجسادهم فوق حرارة الصحراء هشيمًا تذروه الرياح. الشجيرات المتناثرة على المنطقة شاهدة على بؤس المكان المفروش بالهياكل، والجماجم، واغتيال الآمال. هزّته جثّة امرأة لم تتحلل، الملامح الصومالية كانت واضحة على جبينها الذي بدأته البكتيريا في تفتيت ما تبقى من سمرته، ربما كانت إثيوبية أو إريترية أو سودانية أو حتى تشادية من يدري، ولكن آله المشهد وترك في وجدانه جرحًا لا يندمل.

وسط مزيج من الأعراق المختلفة كان «الصحراء الكبرى» صامتًا بعظمته، وكانت الرياح تلعب بقايا عظام الكادحين، وتبدد آثار الحكايات، والذكريات، والملامح، وربما الآهات التي تركها الراحلون قبل أن تنهشهم أنياب المنية، ويذيبهم هجير الشمس أثناء عبورهم صحراء أفريقيا نحو أوروبا وتحقيق الأحلام الوردية الراسخة في مخيلتهم. في غمضة عين تشكّل الرمال تلالًا متفردة، وجبالًا ذهبية مترامية الأطراف، وهضابًا راسخة على خارطة الصحراء، وفي غضون دقائق تتلاشى التلال، وتختفي المعالم، وتذوب الجبال وتتوارى عن الأنظار، وتبدأ تضاريس الصحراء تتشكل من جديد، إنه شبح في عمق الطبيعة الجافة وأركيولوجيا قاتمة لبسطاء طردهم استبداد تحكم على مصيرهم وماتوا وهم ينشدون حياة كريمة تليق بهم.

لقاء الثقافات واضحة على المعالم الحجرية والكهوف التي تشكل دفتر الذكريات، في داخل الكهوف المتربة بقايا أوراق من القرآن الكريم، وإنجيل مترهل من العهد القديم، وبعض التعويذات الوثنية، ومعتقدات أخرى مبهمة من أفريقيا وأقاصي الدنيا، وأجساد كانت ممتلئة يومًا ما طمستها المنية، ورسومات بدائية، وأسطر موجعة، وأمنيات معلقة، وأغان وطنية مبكية، وترانيم عشق تثير الأشواق الكامنة، ومحاولة شعرية أجهضها الموت. معظم الكتابات مكتوبة بالدم القاني ودموع المآقي وريق الحناجر، لا بحبر الأقلام ورومانسية المداد، ورغم التعرية الطبيعية والانجراف الصخري إلا أن بعض الكتابات ما زالت تقاوم وتؤرخ للجوع والحنين والأحلام التي كان يحملها المهاجرون قبل أن يفارقوا الحياة أو يسعفهم الحظ ليواصلوا المسيرة في متاهات الصحراء.

مأساة الصوماليين في جنوب أفريقيا

منذ صغري كنت مشغوفًا بمعرفة تاريخ المناضلين وتتبع حياتهم سلوكًا وفكرًا وأدبًا، كما كنت مشغوفًا بقراءة يومياتهم وتأليفهم لمعرفة طبائعهم وأيديولوجياتهم ومحركهم الداخلي، وكان المكافحون الحقيقيون مَثَلي الأعلى في الحياة لأستمد من حياتهم قوة تدفعني نحو تحرير بلدي الذي أحمل همّ توحيده من جديد، كنت أحمل فكرة الصومال الكبير وأن يعيش شعبي الممزق يوما تحت عَلم يجمعهم ودولة تضمهم جميعا، وكنت أتخيل المشاهد الرومانسية الحالمة التي تأتي من الخيال السابح في فضاء الحرية، سيلتئم الجرح وتختفي المعاناة وتذهب التجزئة وتتوارى عن الأنظار الحدود الكاذبة.

ولقد استمتعت بالسفر إلى حضرة الثائرين الحقيقين، وحاملي لواء الكفاح في العصر الحديث، بدءًا من الإمام أحمد جُري أيقونة الجهاد في القرن الأفريقي، والسيد محمد عبد الله حسن داحر الإنجليز وقاهر الطليان، وعبد القادر الجزائري قائد ثورة المليون شهيد، وغاندي وثورته السلمية التي قادها

النباتيون الذين قابلوا بندقية الإنجليز بصدور عارية، إلى بوليفار مُلهِم شعوب اللّاتين ومحرر السكان الأصليين حتى أصبح أيقونة وطنية، وسميت - لاحقًا - جمهورية كاملة باسمه، تيمنًا بشخصيته وتاريخه ونضاله المشروع ضد المحتل الإسباني.

إلى الثائر اليساري والطبيب جيفارا الذي ترك العيادة والمشرحة إلى ساحات الوغي في الغابات الكوبية والأحراش الأفريقية إلى أن وصل صدى كفاحه جميع أصقاع العالم من "منهاتن" غربًا إلى "مابوتو" شرقًا حين قال: "لا يهمني متي وأين سأموت! بقدر ما يهمني أن يبقى الثوار يملؤون العالم ضجيجا كي لا ينام العالم بثقله على أجساد الفقراء والبائسين والمظلومين" وإن كان الرفاق الكوبيين من بعده لطخوا نضاله بجرائمهم وجشعهم. ولا أنسى مهدي السودان صاحب المعارك الفاصلة ضد الإنجليز وخليفته عبد الله التعايشي، وقرأت الثورة العاتية في موزامبيق، والثورة الأنجولية وكيف قاوم الشعب ضد المحتل البرتغالي بقيادة الطبيب الأنغولي الشهير أوغوستينيو نيتو (١٩٢٢- ١٩٧٩م) الذي أصبح بطلًا قوميًّا بعد رحيله ورفاقه من الجبهات الثورية الأنغولية. وأخيرا القضية الأولى للعرب والمسلمين فلسطين المحتلة وشعبها الباسل الذي سطر أروع الملاحم وأجمل البطولات على جبين العالم المتغطرس الذي يدافع عن اليهود ويكرس تفوقهم العسكري والاقتصادي.

أوردت هذه الأمثال تمهيدًا لحكاية أحببتها وعشت في تفاصيلها ولو بومضات السطور، قصة مليئة بالمواقف الإنسانية وحرق الذات من أجل الآخرين، قصة تجسد كيف يقاوم الإنسان ضد العدو والأمراض والجوع، والزنزانات، وشقاء الحنين، وعذابات المنافي الإجبارية من أجل قضية آمن بها

وكرَّس حياته من أجلها، ولكن شوه الشعب هذا الإرث التاريخي بعنصريته تجاه إخوتهم الأفريقيين العزل. لقد ذرفت الدموع من عيني وأنا أقرأ قصة كفاح "شعب جنوب أفريقيا" وبسالته حين أصرّ على انتهاء مظاهر التمييز العنصري ـ رغم قلة اليد وضخامة العقبات ـ وأن يكون سيدًا لوطنه عزيزًا في مرابعه، يمارس الحياة في ظل وطن لا يشعر فيه المواطن سوى الانتماء والكرامة. في فصول النضال وفي صفحات الملحمة كانت التحديات ترتفع والأمنيات تتسع وكانت الجموع ترسم بريشة الفداء خارطة الوطن.

لم أشعر بمسافة السفر التي كانت قرابة ٤٠٠ كم ما بين "غاريسا" حاضرة الإقليم الصومالي في كينيا ونيروبي وأنا أتصفح كتاب المناضل الكبير ماديبا «المسيرة الطويلة من أجل الحرية» الذي أودع فيه مانديلا فصول حياته، بدأ من ولادته عام ١٩١٨م في قرية "مفيزو" بمقاطعة "أوماتاتا" بإقليم "ترانسكاي" في جنوب أفريقيا، وحتى آخر يوم استلم فيه مقاليد الحكم من البيض الذين عذبوا واضطهدوا المواطنين الأصليين بسبب لونهم وثقافتهم ومعتقداتهم، ومارسوا ضدهم أبشع أنواع التمييز العنصري والاستعباد البشري.

لقد ترك عبقري القارة في هذا الكتاب قصة تستحق أن تكتب بماء الذهب بل بماء العيون، من لحظة ولادته من أب عصامي وأم حنون، إلى تركه حياة القرية الروتينية إلى زخم المدينة، ومن دراسته الجامعية إلى انخراطه في صفوف حزب المؤتمر الوطني الأفريقي (African National Congress) ممثل الشعوب السوداء والحزب الحاكم حاليا في جنوب أفريقيا، ومن معاناته وأشجانه وأحزانه، وحكاياته، وتصوراته وأفكاره، وانكساراته، وأفراحه، وإنجازاته التي خلدها التاريخ في أنصع صفحاته. ولَكَمْ كان كبيرًا في عيني

حينما قرأت المعاناة التي مر بها من أجل مبادئه ومعتقداته، وكيف طُرِدَ من مدينته "جوهانسبيرج" التي كان عاملًا ينقب عن الذهب في مناجمها إلى "سويتو" تلك الضاحية البائسة التي أصبحت منفى للسود والملونين في منتصف وبداية القرن العشرين، ولا أخفيكم سرًّا إن قلت اجتاحتني قشعريرة غريبة حينما شاهدت ملعب سوكر سيتي الذي أقيمت فيه نهائيات كأس العالم عام ٢٠١٠م، "سوكر سيتي" التحفة الرائعة التي غيرت حياة "سويتو" من جحيم وخزانة للألم، ومزبلة للقمامة يتسكع عليها ملايين المحرومين، إلى مدينة عالمية يصل صداها عواصم العالم وكبريات المدن يتسع ٩٤ ألف متفرج.

كانت قصة روهليهلا أو نيلسون مانديلا (١٩١٨ – ٢٠١٣م) كما أطلقت عليه أستاذته في الابتدائية ذات شجن ومشاعر تجعل الإنسان يستحضر المعاناة، والمطاردة التي تعرض لها هذا الشخص الملهم بسبب مواقفه الشجاعة، حيث عاش طريدًا ومهاجرًا عن وطنه لا يعيش مع أولاده وأسرته، بل يعيش في الزنزانات والخنادق، أو البراري في معظم عمر الثورة. وعندما أتأمل المحاكمات الهزلية من "ريفونيا إلى روبن أيلاند" والسنوات الطويلة التي كان فيها سجينا يواجه أسوأ الظروف في زنزانته الانفرادية أتساءل: يا ترى بم كان يمنِّي النفس؟ وكيف تحمَّل المعاناة والتعذيب الجسدي، والإرهاق النفسي في زنزانة موحشة عنوانها العنصرية والأعمال الشاقة والانتهاكات الصارخة؟

لم يكن منديلا وحده من خطَّط للثورة وفجر بركان الغضب، بل أتذكر المظاهرات النسوية الكبيرة التي عمت مدن وقرى جنوب أفريقيا، لقد كانت المرأة في الصفوف الأمامية للثورة تواجه القهر بابتسامة حالمة وعزيمة لا تهون، والتنكيل بمزيد من التجلد ومناصرة القضية، وأتذكر أيضا رفيق دربه

وصاحبه في الكفاح وولتر سيسولو ١٩١٢- ٢٠٠٣م (Walter Sisulu) البطل الذي عرف الشعب من بريق عيونه العزيمة والوثبة الرجولية الحقيقية، وتستحضرني مواقفه الخالدة حينما عُيّن سفيرًا يتجول في أفريقيا ليصل صوت الشعب المكبوت إلى القارة السمراء في رحلة شهيرة بدأت من "سويتو" إلى "القاهرة"، والخطر الذي تعرض له حينما علم المستعمر رقم رحلته التي كانت سرية للغاية ظلت تؤرق مضاجع رفاقة المختبئين في تلال ناتال ومحاجر خونتاين وأدغال بلاد زولو.

تعددت مآثر الثورة وتاريخها وأبطالها الأشاوس، ومن القامات الوطنية التي لم يُكتب لها أن تستظل تحت علم جنوب أفريقيا الحرة أوليفير تامبو ١٩١٧– ١٩٩٣م (Oliver Tambo) رغم تخليد اسمه حينما أطلق على أكبر مطار في أفريقيا "مطار أوليفير تامبو في جوهانسبيرج" ورغم جدل ورفض المعارضة إلا أن الحكومة أصرت على قرارها وكان لها الحق في ذلك. كان اليد اليمنى والنائب المخلص لمنديلا كما كان رئيسًا للحزب، أوليفير كان صوت الشعب حينما يصاب الجميع بالذهول والخرس، وكان نجمة في سماء الوطن حينما يعم السواد والحلكة ليالي جنوب أفريقيا المتشابهة المبلولة بالكآبة والضيم. لقد عانى الرجال في جنوب أفريقيا أبشع أنواع القهر والإذلال، وذاقوا مهانة كانت وسمة عار على جبين العالم في تلك الحقبة السوداء، وتعرضت النساء للاغتصاب الجماعي والقتل والنفي وكافة أنواع الاضطهاد والتعذيب.

واصلت الثورة كفاحها نحو المجد والخلود، وسقط أصدقاء مانديلا ورفقاء دربه كمهر للحرية والاستقلال، وتعرض الشبان لحملات القمع

والإرهاب وتصفيات جسدية وإهانات بالغة، وبعد سنوات من العبودية ونهب الثروات والمطاردات الشهيرة في "ويست كيب"، نالت الجموع في جنوب أفريقيا حريتها عام ١٩٩٤م، ونالت خطبة مانديلًا الشهيرة استحسان الجميع، وبات معشوق الجماهير وبُنيت له تماثيل عملاقة في العواصم الغربية التي كان بالأمس القريب مطلوبًا لدى دوائرها القضائية كمجرم هارب عن العدالة، ناهيك عن حواضر أفريقيا التي أصبح بطلها الأوحد!

إنها قصة شجن وكفاح طويل خاضها الشعب بقيادة أبطال حقيقيين ابتعدوا عن الظلم والمحاباة، ونادوا بالوحدة والتكاتف ومبادئ العدالة والمساواة ودولة القانون، لم يهدروا وقتهم بدخول متاهات الانتقام وسذاجة تشريح جثة التاريخ وإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، بل أسسوا دولة تحترم المواطنة وتقدس الحياة وكرسوا حياتهم من أجل هدف سامٍ.. الحرية من الاستعباد وقيادة الدولة نحو الازدهار والتطور في كافة المجالات مما جعل جنوب أفريقيا دولة رائدة عالميا ومحليا.

ورغم جمالية نضالهم وعظمة كفاحهم ضد الأوروبيين الغزاة فإن واقع المجتمع الجنوب أفريقي الحالي يحزن الإنسان بهمجيته، ويتضاعف الحزن عندما ندرك الهجمات المنظمة ضد الجالية الصومالية التي تعيش وضعًا إنسانيًّا مأساويًّا وحالة نفسية وأمنية متدهورة! تتطلب تدخلًا عاجلًا، سواء كان التدخل من جهة الحكومة الصومالية أو الحكومة في جنوب أفريقيا، أو الهيئات الأممية والمنظمات الحقوقية، لأن الوضع مُزْرٍ للغاية ولا يتحمل مزيدًا من الضحايا الذين يسقطون في كل لحظة، وبلا جريرة وبدم بارد داخل المدن والقرى والشوارع في مختلف أنحاء جنوب أفريقيا.

لم تبدأ الاعتداءات الموجهة ضد الصوماليين اليوم، بل كان حدثًا يوميًّا في السنوات الأخيرة مما جعل حياتهم معاناة لا تنتهي، تتجدد وتتعاقب فصولها، ولا تشرق شمس يوم جديد إلا ويحمل للصوماليين فجيعة مؤلمة، مقتل شخص، وجرح آخر، سطو مسلح على المتاجر والمحلات التجارية، ولكن ما يدعو إلى الدهشة هو التلذذ العجيب لتعذيب الضحية والتنكيل بها، والأدهى من ذلك أن القتلة يمارسون هوايتهم المفضلة: قتل الإنسان وسحله في الطرقات العامة ولا أحد يردعهم أو ينقذ الأبرياء من الوحوش البشرية!

وإزاء ثالوث الكراهية واللامبالاة الحكومي وتقصير الهيئات الحقوقية في تأدية دورها المنوط أصبح الصوماليون هدفًا سهل المنال للعصابات الإجرامية، ومن الغريب أن العنف والنهب والقتل الهمجي أصبح موجة موجهة ضد الصوماليين فقط دون غيرهم من الجنسيات المنتشرة بكثرة في جنوب أفريقيا، مما يثير تساؤلات كثيرة حول مدى تورط أو تراخي الأجهزة الرسمية في جنوب أفريقيا لهذه المجازر المتكررة التي تشكل وسمة عار على جبين القارة والإنسانية قاطبة، لأنها تكرس العداوة والعنصرية بأبشع صورها، وهذا مما لا يمكن أن يحدث في جنوب أفريقيا التي ذاقت الويلات وخاصة أصحاب البشرة السمراء الذين اكتووا بنار التهميش والازدراء وعانوا من الفصل العنصري والتمييز العرقي قرونا!.

"جنوب أفريقيا" كانت دولة تسكن في وجدان كل صومالي لما عانت من الاضطهاد العرقي ووقفنا بجانبها عند الأزمات، وصولات الصومال وجولاتها في أنحاء العالم في العقد السابع من القرن الماضي من أجل رفع الظلم عن الأفريقيين خالدة في سجلات التاريخ، ولكن تنكُّرهم للجميل حينما

احتاج الصوماليون إليهم يدل على معدنهم، وقد نجد عذرًا لأنه شعب أثرت عليه الكراهية والعنصرية البغيضة التي مورست ضده قرونًا كثيرة، مما ترك في طبائعهم همجية قاتلة وحقدًا دفينًا ضد الطرف الأضعف.

ورغم مساهمتنا الفاعلة في تحريرهم، حيث أوت الصومال رموز المعارضة في أصعب اللحظات، واهتمت قضيتهم عبر المواقف السياسية والفن وخاصة الأغاني الوطنية التي كانت تذيعها راديو "مقديشو" أغاني كانت تشجع المناضلين وتعزز مكانتهم وتندد بالاستعمار الهمجي في جنوب أفريقيا ويمدح دور الثوار وقادتهم ويحثهم على السعي نحو الحرية والخروج من ربقة الاحتلال إلى لذة الاستقلال لم نجد منهم سوى القتل وزهق أرواح الشباب الصومالي في المدن والضواحي. ولقد خلّد الفن الصومالي سنوات الكفاح والنضال للشعوب الأفريقية وناصر القضايا العادلة، بل كان يدعو إلى تحريرهم وتوحيدهم ومؤازرتهم، وخير دليل على ذلك هو إتاحة رموز السود وقادة نضالهم منصات للتواصل الخارجي وإيصال صوتهم للجهات المعنية، وقد تغلغلت قضيتهم في الفن والأدب الصومالي وبات حديثهم ومناصرتهم حديث الساعة وغنت لهما العندليبة دَليسْ وعرّاب الفن في الصومال عبدي علي باعلوان في أغنيتهم الأوبرالية الشهيرة التي كانت شارة بارزة للأفريقيانية (Pan-Africanism)، وحينما كانت تردد حنجرة دَلَيسْ وباعلوان الذهبية أغنية "أفريقيا" التاريخية التي تحث الأفارقة على المقاومة والندّية والوحدة والاعتزاز بالذات الأفريقية المتميزة، وتندد بالدونية وتدعو إلى احترام التقاليد واللون الأفريقي المتفرد والتشبث بالخصوصية الثقافية والسحنة الأفريقية البارزة لم يكن في بالهما أن الصوماليين يحتاجون يومًا إلى جنوب أفريقيا

فيستقبلها الشعب الجنوب الأفريقي بالسيوف والرصاص والكراهية، ولكن دار الزمن دورته فأصبحنا لاجئين تحت كل سماء نعاني قسوة الحياة فوق كل أرض. وليست المعاناة حصرية في الجالية الصومالية في "جنوب أفريقيا"، بل كثيرا ما تواجه الجالية الصومالية في مختلف بقاع العالم حالات مشابهة من العنف المقصود والهجوم الهمجي، في ظل عدم وجود دولة تعيد لهم الاعتبار وتحمي شرفهم وعزتهم، وإن كانت الدول الأخرى أقل حدة وأقل بشاعة من الوضع السيئ للصوماليين في جنوب أفريقيا.

كنتُ محبًّا ومتضامنًا مع هذا الشعب وتاريخه ومسيرته الطويلة من أجل الحرية، وكنت آملًا أن يكون أكثر إنسانية وأكثر تفاهمًا مع المعاناة، ولكن خيَّب ظني وأثار الذعر في أوصالي عندما رأيت قتل وسحل المواطنين الصوماليين في شوارع بورت أليزابيث وكيب تاون وجوهانسبرغ وبريتوريا وغيرهم من المدن والضواحي، وحقيقة كانت صدمة كبيرة لكل الأحرار، ولكن التاريخ لا يرحم وسجلاته لا تنسى أحدًا، وبما أن عجلة العالم تدور وردّ الكرامة واجب، فالمجانين والذئاب البشرية في جنوب أفريقيا الذين دأبوا لعق دم البشر لا يمر عملهم الإجرامي بدون حساب حقيقي وعقاب سيردعهم، وسيندمون عليه طال الزمن أو قصر، وإذا كانت الصومال اليوم منهمكة في الصراعات وتدور تائهة في الحلقات المفرغة فإن التيه الذي ورّثنا الذل والهوان سينتهي حتما – بعون الله وإلى الأبد – وعندها سيندم أو يخجل من خدش يوما كبرياء المارد ومرغ بالتراب أنف العملاق الذي كان غائبًا بسبب التأثيرات الناتجة عن الصراعات العبثية .

وأخيرا آن الأوان أن يدرك الشعب الصومالي أن اللجوء إلى البلاد الأجنبية والعيش بذل واحتقار لا فائدة منه، وأن الحل يكمن في تفاهم الصوماليين وحل معضلتهم بعيدا عن الأيادي الخارجية وفي عقر وطنهم، والموجات المتتالية من الهجرات لا تزيدنا سوى الحرمان والمرارة، والمطلوب هذه المرة هو الهجرة العكسية نحو بلدنا كي نعيش معزَّزين مكرَّمين.

رقم الإيداع	/ ٢٠٢٠
I.S.B.N الترقيم الدولي	978-977-10- -